الإلحاد أمام محكمة العقل

(إثبات صحة رسالة الإسلام من خلال وقائع التاريخ)

د. محمد جاد الزغبي

شاعر ومفكر مصري

إهداء

إلى فضيلة الشيخ عبد الرحمن الشويمي أبو عبد الله مؤسس موقع (جداريات) الثقافي لمكافحة الإلحاد تقديرًا لجهوده الباذخة في هذا الملف الهام وحرصه على نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة.

إلى والدى الحبيب.. رحمه الله

وإلى شقيقتى الكبري فاطمة جاد.. حفظها الله

عرفانا ووفاء لحقهم علىّ أدبيًا ومعنويًا

وإلى أستاذي الكبير والقدير الأستاذ الدكتور/ حسام عقل..

الرجل الذي وهب حياته للدفاع عن قضايا الدين والحضارة الإسلامية الباذخة والذي نعده امتدادا لكبار مفكرينا السابقين

وإلى الشقيقين الكبيرين..

الباحث العبقري / د. هيثم طلعت..

الإعلامي اللامع / أحمد الفولي..

تقديرًا وعرفانًا بدورهم وتشجيعهم وعطائهم في مجال مكافحة شبهات الإلحاد.

محمد جاد الزغبي

القاهرة ـ ٢٠٢١م

خطة الكتاب

تقوم فكرة كتاب (الإلحاد أمام محكمة العقل) على نفس المنهج الذي التزمته في كتابي (كيف ترد الشبهات بالحوار العقلي وحده)[1].

وهذا المنهج هو عبارة عن محاورات مبسطة تلتزم بالمنطق البسيط والفلسفة البسيطة والتاريخ المبسط وقواعد الإثبات العقلي الصالحة لمخاطبة أي إنسان مهما كان تخصصه أو مجاله أو درجة ثقافته.

لأن التجربة أثبتت أن المناقشات العلمية الصرفة فى الرد على الملحدين وأصحاب الشبهات تحوى كما كبيرا من المعلومات

(١) صدر الكتاب عن دار يسطرون للنشر والتوزيع عام ٢٠١٨ - ومتاح منه نسخة إلكترونية على مكتبة صيد الفوائد.

والأسانيد العلمية التى تحتاج معها حد أدنى من الثقافة المعرفية وقد قام علماؤنا عبر العصور ببذل جهد بالغ محمود فى هذا المجال.

لكن مع الأسف في أجيال الشباب الحالية المنعدمة التركيز والمنعدمة الثقافة تقريبا إلا قليلًا..

أصبح الحوار العلمي معهم غير مجد بسبب عدم إدراكهم أصلا لمفاهيم العلوم..

لهذا فهم يريدون المناقشة التي يغلب عليها منطق الحوار والإقناع بأدواتهم هم وهذا ما حاولت تنفيذه في كتابي السابق (كيف ترد الشبهات بالحوار العقلي).

وليس معنى الحوار العقلي أن نهمل الجوانب العلمية لكن معناه أن نستند فى الحوار المبسط إلى القواعد غير المختلف عليها وغير الحاشدة بالتفاصيل العلمية المتخصصة.

والأهم..

الاستناد إلى المعرفة والتاريخ والحقائق الذي لا يختلف عليها أحد.

وحتى يكون كتابنا (الإلحاد أمام محكمة العقل) إضافة بسيطة على الطريق وليست مجرد بحوث مكررة..

فقد جعلت محور الكتاب فى نقطة ندر التعرض لها..

ألا وهى نقطة إثبات صحة وجود الله تعالى وإثبات صحة رسالة الإسلام من خلال وقائع التاريخ البشري والحضارات المختلفة ومقارنة ذلك بوقائع محددة في التاريخ الإسلامي بداية من السيرة النبوية وانتهاء بسيرة الراشدين..

حيث يحفل تاريخ بداية ظهور دعوة الإسلام وبداية تكوين الدولة بالعديد من الأدلة الدنيوية القاطعة على ضرورة وجود الله تعالى وضرورة صحة رسالة الإسلام في الوقت ذاته..

فالإسلام جاء دينا عاما شاملا للأرض كلها وعلى امتداد الزمان منذ ظهوره وحتى يوم القيامة..

لذلك تميزت رسالة الإسلام بالمعجزات المتفردة التي تتصف بالدوام المطلق لأنها ليست رسالة دينية محدودة بقُطر معين أو زمان بعينه.

وبالتالي..

كانت ميزة الإسلام في معجزاته متمثلة فى نقطتين..

الأولى: دوام ظهور أدلة صحة الإسلام باستمرار على الخط الزمني.

الثاني: تفرد الأدلة بميزة التنوع الحضاري الصالحة لكافة ثقافات الأرض المختلفة.

والمتأمل فى تاريخ ردود علماء المسلمين على شبهات الإلحاد وشبهات الطاعنين في صحة نبوة محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيجد أن علماءنا على امتداد التاريخ لهم عطاء علمي باذخ تمكن من تفنيد الشبهات بكافة أنواعها.

من الجانب الفلسفي والدينى وكذلك من جانب إعجاز القرآن العلمي والقانوني واللغوي.

وفى العصر الحديث أضاف العلماء إضافات عديدة فيما يخص الإعجاز العلمي فى القرآن وكذلك فى تفنيد وإبطال نظرية (التطور) أحد أشهر نظريات الإلحاد فى التاريخ المعاصر.

لذلك رأيت أن أضع في هذا الكتاب جانبًا جديدًا - نوعًا ما - يغطى نقطة هامة للغاية لم تنفرد لها البحوث الواجبة.

ألا وهو إخضاع التاريخ الإسلامي لنظريات الأمن القومى والسياسي ونظريات نشوء الدول وعوامل تقدمها حيث أن هذه العلوم تبلورت فى العصر الحديث وأبرزت مبادئ محددة خضعت لها كافة الحضارات في التاريخ فى المستوى السياسي والعسكري.

وبما أن علوم الإستراتيجية السياسية والعسكرية هى علوم لها قواعدها الثابتة فى عصرنا الحالي وخضعت لها حضارات الأرض قديمًا وحديثًا.

فهنا يلزم لنا أن نعرف موقف هذه النظريات من تجربة إنشاء الدعوة الإسلامية وبداية تكونها وإنشاء الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة.

وبتطبيق هذه النظريات على تجربة دولة الإسلام سنكتشف -وفقا لعلوم الإستراتيجية- أن تجربة دولة الإسلام لا يمكن أن تتحقق بالكيفية التى حدثت بها إلا بعامل التدخل الإلهى.

حيث أن تجارب إنشاء الدول والإمبراطوريات فى تاريخ الأرض قديما وحديثا لم يحتو على مثيل أو نظير مقارب لتجربة إنشاء دولة الإسلام التي كان من المفترض - طبقا للمنطق السياسي- أن تصبح دولة منتهية قصيرة العمر تحت أي مقياس سياسي أو عسكري.

لكن الذى حدث كان معاكسًا لكل هذا.. ودولة الإسلام كانت تجربة نظرية صاحبها التطبيق.

تتمثل نظرية النشأة فيها في المبادئ التي أرساها القرآن الكريم لنشأة الدول والممالك وامتلاكها القوة بالرعاية الإلهية.

وقد طبق المسلمون الأوائل هذه النظرية بحذافيرها فى عهد النبي ﷺ وأيضًا فى عهد الراشدين وكذلك عبر خط التاريخ الإسلامي الممتد عبر ١٢ قرنا لم تخل فيه حقبة زمنية من دولة إسلامية قوية نشأت وتعاظمت استنادا لنفس المبادئ النظرية التى أرساها القرآن الكريم.

ولأن القاعدة العلمية تقول أن التجربة هى خير مقياس على صحة النظرية..

فسنري في هذا الكتاب تطبيقات النظرية القرآنية فى إنشاء الدول ونرى مدى صحة التطبيق وعوامله.

ثم نقارن بين هذا كله وبين المبادئ الإستراتيجية التى تحكم إنشاء الدول والإمبراطوريات لنرى هل كانت تجربة دولة الإسلام

منطقية بالنسبة للقواعد العلمية الأرضية أم كانت -ولا زالت- تجربة خاصة برسالة الإسلام ونظريته الخالدة فى القرآن الكريم.

لهذا فالكتاب ليس متخصصا فى الرد على فكرة الإلحاد منفردة.. وليس متخصصا للمجال الفلسفي والعلمى الذى يبين عوار نظرية داروين والتطوريين..

بل هو كتاب جمع بين الفكرتين فكرة مجابهة الإلحاد وفكرة إثبات صحة رسالة الإسلام في نفس الوقت عبر الاستدلال المنطقي والعقلي لوقائع التاريخ ومقارنة سر التفرد والنبوغ فى تجربة نشأة دولة الإسلام وبين التجارب المماثلة التقليدية فى نشأة الدول والممالك.

مقدمة

.. العقل المحايد.. والعقل المنحاز

إن أول ملحوظة نبدأ بها هذه القضية..

هى أن (الملحد منكر وجود الله) أشبه بالشاب الذي وُلد مجهول الأب والأم وعندما أعياه البحث خلف أبويه أو أزعجته كثرة السائلين خرج على الناس ليقول لهم أنهم مولود بغير أب وأم !

وبهذا أراح عقله بهذا الجواب واتهم الساخرين منه بأنهم أولى بالسخرية نظرا لأنهم يصدقون في أن آدم عليه السلام مولود بغير أب وأم !

أما (الملحد منكر وجود الأديان)..

فهو كالمولود معروف الأم مجهول الأب يعلم يقينا أن له أبا لكنه لا يريد رؤية الدليل القاطع فى تحديد نسبه لأبيه ويرفض الاعتراف بالأب الظاهر أمامه لأنه فى نظره لم يأت له بدليل عقلي مقنع يثبت به دعواه فى أبوته..

رغم أن هذا الأب يتولاه بالرعاية والدعاء ويتخذ من عطفه وحنانه عليه دليلا قاطعا أمامه بأن اهتمامه هذا دليل صدق أبوته له.

لكن الابن يرفض هذا المنطق !

وفى الحالتين نجد أن الأزمة لم تكن أزمة إثبات الوجود أو الاقتناع العقلي بقدر ما كانت الأزمة الحقيقية في أن العقل في الحالتين كان عقلا ضِدّيا منحازًا..

لأنه لا يبحث عن الحقيقة بل يبحث عن دليل يدعم هواه المسبق.

وفى التجربة الفكرية الفريدة التى مر بها المفكر الراحل د. مصطفي محمود ومئات المفكرين عبر القرون..

يتضح لنا مدى الفارق الشاسع بين العقل المحايد المجرد الذي يهدف ابتداء للوصول إلى الحقيقة عن طريقة فلسفة الشك في كل الثوابت والبدء من أول الطريق خطوة.. خطوة

ورغم وعورة هذا المسلك فى كونه يرفض كل المدونات السابقة والأقوال المسجلة والأدلة المفصلة في الأديان جميعًا.

إلا أنه طريق -رغم صعوبته- يفضي بلا شك إلى إيمان مرتكز على حقيقة ويقين وصدق..

وهذا العقل إلى يهدف أصلا للوصول إلى الحقيقة - أى أنه يبدأ مستقلا عن كل نتيجة مسبقة وانطباع موروث - هو العقل المحايد الذي يصل بلا شك للحقيقة المطلقة فى عالم تحكمه النسبية.

لذلك لا قلق إطلاقًا على (الملحد الفكرى) الذى استبدت به الحيرة العقلية فعلا للتساؤل عن حقيقة وجود الله وحقيقة الأديان.

وهؤلاء تكثر نوعيتهم فى الغرب حيث أن المجال الغربي مفتوح لكل الشهوات الممكنة بلا أى إنكار أو احتقار.

وهو يختلف جذريا عن العقل الموجه مسبقا..

وهذه النوعية منتشرة للغاية فى المجتمعات المحافظة كالمجتمع العربي الذى يمثل فيه المجتمع ضميرًا رقابيًا صارمًا يقلص من طموحات أصحاب الشهوات الزاعقة.

فالمتشبع بفكرة رافضة لوجود الله تعالى أو رافضة للشرائع والرسل ويوهم نفسه أنه يريد البحث المجرد المحايد بينما هو يبدأ طريقه في الأصل آخذا جانب اليسار على طول الخط وباحثًا عن كل شبهة أو ذرة دليل عقلي تؤكد منطقه الملتبس وتهدى نفسه المتخابثة عليه والتي تغره دوما وتدفعه إلى مواجهة الأدلة الصريحة على وجود الله بمزيد من الإنكار والاستنكار واتهام الغير بالإغراق فى الوهم والخيالات.

دون أن يدرك هذا العقل أنه بالفعل يغوص فى أعماق الوهم فعليا منذ أن بدأ بحثه عازما على نتيجة محددة وزاعمًا لنفسه أنه على الحق..

وغالب الأمر فى هذه النوعية من العقول أنها عقول لم تلجأ إلى الإلحاد تحت دافع عقلي أو فكرى بل لجأت إلى الإلحاد كوسيلة للدفاع عن أنفسهم فى مواجهة المجتمعات الرافضة للزندقة والشهوات..

فهذه النوعية هى نوعية أدمنت الفواحش والشهوات أيا كان نوعها وفى طريق إدمانها ذلك تعادى الأديان جميعًا - وتحديدًا الدين الإسلامى - لأن قبضة التشريع تُحرم الشهوات أو تقننها لكي تصبح بشكل مشروع ومفيد للتطور البشري.

وفى نفس الوقت يولد ملحدو الشهوات غالبًا فى مجتمعات محافظة يمثل فيها المجتمع والضمير العام قانونا أشد قسوة من القانون المكتوب وينظر إلى أصحاب الشهوات المعلنين بها نظرة احتقار ودونية مغلظة..

وبالتالى يعانى هؤلاء من نظرة المجتمع لهم مهما بدا منهم أنهم لا يبالون بها.

لهذا يلجئون لفكرة اعتناق (الإلحاد) ويحاولون بشتى الصور إثبات أنهم مفكرون أو فلاسفة أو عقلانيون أو حداثيون... إلخ تلك الألقاب.

لماذا ؟!

لأنهم يعتبرون إظهار أنفسهم بهذا المظهر الفكري يحميهم من نظرة الاحتقار المجتمعي لهم إذا نظر لحقيقتهم على أنهم مجرد عقول تعبد الشهوات والفواحش..

وذلك لأن القاعدة التى استندوا إليها ملخصها (الكره أفضل من الاحتقار)..

وهى قاعدة عامة صحيحة..

فالإنسان قد يتسامح أو يتصالح مع الكارهين له أو المعادين له أما ما لا يحتمله الطبع البشري والفطرة السليمة هو الاحتقار المجتمعى.

فالفارق ضخم وكبير.

لذلك دوما أقول أن العالم العربي المعاصر بالذات لا يحتوى على ملحدين حقيقيين أو تجارب إلحاد فعلية مغرقة فى الجانب الفلسفي لحقيقة وجود الله.

فهذا النوع من الملحدين انقرض فى العصر الحالى عندنا وقد انتشر هذا النوع فيما مضي في فترة بدايات القرن العشرين وحتى نهاية الحرب الباردة..

حيث شهد العالم العربي بالفعل صراعًا عقليًا كاسحًا بين الإيمان والإلحاد وكان سبب الظاهرة معروف ومنطقي وهو النقلة النوعية التى حدثت فى العلوم الكسبية فى عصر الذرة واختراق الفضاء والتقدم التكنولوجى الكاسح فى مجال الفلك.

فالطفرات العلمية الرهيبة فى حياة الشعوب لابد أن تصاحبها موجة إلحاد هائلة دافعها الغرور البشري التقليدى المصاحب للمنجزات العلمية..

ولكن ما إن تعود وتيرة التقدم العلمى للخط الطبيعى فى التطور حتى تتراجع موجات الإلحاد ويبدأ العقل من جديد فى استيعاب مدى تصاغر العلم فى مواجهة الغوموض والألغاز العلمية التى تحفل بها الطبيعة..

لذلك نقول أن نوعية ملحدى الفكر انتهت مع تلك المرحلة.

ومع بدايات النظام العالمى الجديد بعد سقوط الإتحاد السوفياتى السابق وانتهاء الحرب الباردة وسقوط النظرية الشيوعية سقط الإنبهار بأفكار الإلحاد ولم يتبق منه إلا شراذم الأتباع الذين كانوا يروجون لكتابات الملاحدة العرب ليس عن اقتناع بل عن رغبة محمومة فى اعتناق الفكر الإلحادى الذى يحررهم من قبضة التشريع الحاكمة على شهواتهم.

وهؤلاء هم من ظهروا ويظهرون فى هذه الأيام والذى يتأمل تجاربهم الفقيرة فكريا يلاحظ أنهم جميعا اجتمعوا على الترويج للإنحلال الخلقي والفكرى وكثرة التعرض لقضايا الجنس والشذوذ

والدفاع عن تلك القضايا بمسميات مختلفة ومحاولة إيجاد ربط طبيعي بين الشذوذ وبين قانون الحياة الطبيعية فى محاولة فاشلة لإخراج الشهوات من بوتقة الإحتقار المجتمعي..

وهذه التفرقة التى طرحناها فى المقدمة تعتبر تفرقة ضرورية وهامة جدا لكل الباحثين الذين يتصدون لمواجهة أفكار الإلحاد والزندقة..

لماذا ؟

لأن هذه التفرقة تؤدى إلى نتيجة هامة جدًا وهى أن المتصدى لمناظرة أى ملحد ينبغي له أولًا أن يحدد نوع الملحد الذى يواجهه.

فالنوع الأول يمكن مواجهته بالردود العلمية والمناقشات المستفيضة نظرًا لأن إلحاده قائم على الجانب الفكري.

أما النوع الثانى فلا يمكن أن نضيع الوقت فى مواجهته بالأسلوب العلمى مطلقًا لأن مواجهته بالأسلوب العلمى هو أسلوب غير علمى فى ذاته.

فالملحد المعادى لفكرة التشريع لا يقوم إلحاده على شبهات فكرية تحتاج التفنيد أو الرد بل يقوم إلحاده على رغبة نفسية دفينة بضرورة تشبثه بأفكار الإلحاد لكونها المخرج الوحيد له كى يحيا بالطريقة التى يحبها ويتصور الحياة بها.

وبالتالى مهما واجهناه بالأفكار والردود العلمية فمن المستحيل أن يقتنع أو يتراجع لأنه في الواقع لا يحتاج تفنيدا لأى أفكار لأنه لا يؤمن بتلك الأفكار أصلا بل يؤمن بالطريق الذى يكفل تحقيق رغباته..

بل هناك ما هو أفدح وأغرب..

فأنا أكاد أجزم أنه لا يوجد ملحد عربي يؤمن بالإلحاد فى أعماقه قط..

والتجربة العملية هى التى تثبت ذلك وتثبت أن كل ما يرددونه إنما هو المكابرة والإصرار على الكفر والإنكار تمسكا بالفكرة التى شرحناها فى إباحة الشهوات لأنفسهم أمام المجتمع.

دليلي في ذلك موقفان كلاهما يعتبر معبرا بصدق عن هذه الحقيقة..

الموقف الأول كان لمخرجة سينمائية شهيرة اشتهرت بالأفلام المتجاوزة واشتهرت أكثر بفكرة الإلحاد التى تعلنها منذ بداياتها..

هذه المخرجة تم استضافتها فى أحد برامج المقالب السخيفة التى تذاع فى شهر رمضان وكانت فكرة المقلب تقوم على وضع الضيف في بركة أشبه بالرمال المتحركة وفى نفس الوقت تخرج سحلية ضخمة من أحد كهوف الصحراء لتتقدم فى بطء مرعب نحو الضيف.

وتم استضافة هذه المخرجة فى أحد الحلقات وبالفعل تم إخفاء الأمر عنها تماما لأن ردة فعلها كانت طبيعية جدا ورعبها كان حقيقيًا حتى أنها كادت تفقد الوعى من هول الموقف.

الذى يعنينا هنا أن السحلية عندما ظهرت وتقدمت نحوها في بطء فوجئنا بهذه المخرجة -التى عاشت عمرها كله تنكر الأديان-

تصرخ بأعلى صوتها بدعاء سيدنا يونس عليه السلام ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأخذت ترددها مرارًا وتكرارًا حتى كشف لها صاحب المقلب عن شخصيته لنرى على وجهها علامات صدمة كبري !

الصدمة هنا لم تكن لمفاجأة المقلب بقدر ما كانت مفاجأة لها أن هذا المقلب تصويره وسيبث على الناس الذين سيرونها وقد تشبثت بالإيمان لحظة تعرضها للموت مما يخالف كل قناعاتها المسبقة..

لهذا وفور إذاعة الحلقة وحتى تدفع عن نفسها الحرج طافت بكل القنوات الفضائية لتؤكد أنها كانت على علم تام بالمقلب وأن ما حدث كان مجرد تمثيل !!!!

ونترك التعليق لذكاء القارئ

والموقف الثانى رواه أحد المعتقلين القدامى فى فترة الستينات حيث كانت المعتقلات تعج بالمعارضين السياسيين من كافة التوجهات.

وحدث أن اجتمع فى قطار الترحيلات فى سلسلة واحدة معتقل ذو خلفية دينية مع معتقل شيوعي ملحد بطبيعة الحال.

ويشاء القدر أن يتعرض المرحلون لحادث مروع أثناء سير القطار نجم عنه سقوط المعتقل الشيوعي وزميله وهم متعلقون بالسلسلة إلى القطار الذى يجرهم بلا رحمة دون أن ينتبه السائق أو الجنود لما حدث.

ولكن رحمة الله أدركتهم وانتبهوا للحادثة وتم إنقاذهم..

بعدها سأل المعتقل الأول زميله الشيوعى والأخير لا زال تحت رهبة الموقف..

«سألتك بالله إلا أجبتنى ماذا كان فى عقلك لحظة سقوطنا من القطار والموت على قيد خطوة».

فرد المعتقل الشيوعى قائلًا: «انصرف من ذهنى كل خاطر إلا التشبث برحمة الله !»

لهذا فالنصيحة التى أوجهها لكافة باحثي الشبهات فى مجال الإلحاد أن ينتبهوا لهذا الفارق الدقيق بين ملحد أشقاه عقله في البحث عن الحقيقة وبين متظاهر بالإلحاد وجد في فكرة الإلحاد طريقا له يفرغ فيه عقدته النفسية أيا كان نوعها !

الفصل الأول

متى بدأت فكرة الإلحاد، وهل الشك كان طريقا للإلحاد أم العكس

الفصل الأول

متى بدأت فكرة الإلحاد ،
وهل الشك كان طريقا للإلحاد أم العكس

على العكس من كل ظنون الشباب المتحفز المتسائل..

لم يكن الشك يوما شيئا معيبا أو ضد الإيمان بالله ﷻ وهذه الحقيقة الغائبة عن عقول الكثرة الكاثرة كانت هى التى أفضت بهم إلى طريق مسدود !

وتبدأ المعاناة فى الأساس بعدم إدراك الآباء والأساتذة وبعض الناصحين بحقيقة بسيطة للغاية وفى نفس الوقت هى حقيقة جوهرية..

هذه الحقيقة مؤداها أنهم عندما يستهولون من أبنائهم أو حتى من أنفسهم أسئلة الشك والحيرة والبحث العقلي عن حقيقة الإيمان

يكون هذا الإستبشاع لمشروعية السؤال هو أول طريق التزمت والجمود والإنحراف الفكرى !

فالهدف الأعلى الذى جاءت به كافة الأديان والرسل عليهم السلام إنما كان قائما فى الأصل على مبدأ الحوار حول تلك القضية.

والله ﷻ من فوق سبع سماوات هو الذى سمح لخلقه بمناقشة فكرة وجوده من عدمه ولم يطلب منا قط الإيمان الموروث المتعصب الرافض لأى أسئلة تموج بالشك حول كنه الشرائع وكنه الأديان..

بل إن الله ﷻ وصف الإيمان الموروث بالذم فى كل المواضع واتخذه حجة على الكافرين فى قوله تعالى.. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

وبالتالي..

فإن محاولة رفض أسئلة الأطفال والشباب والأبناء عما يحيك في صدورهم هو أمر يخالف أول ما يخالف منهج القرآن الكريم ومنهج الرسالات السماوية كافة..

ولا أجدنى مُبالغا إن قلت بأن مأساة آلاف من الشباب السالكين لطريق الإلحاد بالتقليد إنما نبع أصلا من الزجر الذى واجهوه وهم يلقون بأسئلتهم الحَيْري إلى ولاة أمورهم سواء كانوا من الآباء أو المدرسين

فالميزة الحقيقية للإيمان تتمثل في عنصرين رئيسيين..

الأول: أن يكون إيمانا من الأعماق عن اقتناع تام وكامل وليس إيمانا بالتقليد الموروث.

الثاني: أنه إيمان قابل للتجديد ـ وفق نص الحديث النبوي ـ حيث أن الإيمان بالعقل الإدراكي يحتاج دوما إلى تجديد أفكاره كلما زادت المعارف واتسع الإدراك..

ومن الغريب والعجيب أن بعض المدافعين عن الإسلام وقعوا في فخ الدفاع عنه بأسلوب الهدم عندما واجهوا بالقوة الزاجرة ما حقه أن يُواجه بالمنطق العلمي..

ولا يوجد دين على وجه الأرض الآن فتح ذراعيه لكل صاحب شبهة أو فكرة داعيا إياه للحوار العقلي المتزن إلا الإسلام بينما آلاف العقائد في مشارق الأرض ومغاربها إنما تتبع في الدفاع عن معتقدها مسلك الزجر والتكفير والتفسيق في الدفاع عن معتقداتها الموروثة لأنها تفتقر إلى قوة الإقناع سواء في أصل عقيدتها أو فروعها..

فالذي يجب أن نفهمه جميعا أن الإسلام ومن قبله كافة رسالات الرسل عليهم السلام إنما جاءت لتطلب ما نرفضه اليوم من أبنائنا وشبابنا..

نعم جاءت الأديان والرسالات لتطلب منا إعمال العقل والتفكر فيما نحن فيه والتأمل في خلق الله تعالى وكونه الشاسع لنعرف طريق التوحيد الحق

فهكذا جاءت الأديان والرسالات منذ نوح عليه السلام باعتباره كان أول عهود البشر بالشرك وفق نص الحديث [1].

ويكفي دليلا على هذا قصة إبراهيم عليه السلام..

فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وكليم الله تعالى بدأ بتجربة التساؤل والشك عندما رفض عقله العبقري بفطرته السليمة كل مخازي قومه في عبادة الأصنام واستنكر فكرة تعدد الآلهة وعقله هذا بدأ في أول الأمر بالإيمان وجوبا أنه لابد لهذا الكون من خالق متحكم..

فالذي تأمله إبراهيم عليه السلام من خلال حياته والكون من حوله أن كل سبب مسبب ولا يمكن لموجود أن يكون بغير موجد..

وعندما فرغ من هذه القضية المسلم بها..

صوب نظره إلى المعتقد الديني في قومه فلم تقبله فطرته وكانت النتيجة أنه أعلن شكوكه ورفضه فقابله أهله وقومه بنفس رد

(١) حديث ابن عباس رضي الله عنهما «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام».. أخرجه البخارى فى صحيحه

الفعل الذي نحذر منه الآباء فقد خاصموه وغاضبوه وهددوه ولم يأت أحد منهم له بدليل أو قرينة تدل على صدق معتقدهم..

أى أن التهديد والزجر وسيلة العاجز فى الأصل لا وسيلة من يملك المنطق..

فكان أن ترك إبراهيم معتقد قومه وصوب وجهه تجاه الكون مناجيا ربا يوقن بوجوده لكنه لا يعرفه..

يقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام..﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧-٧٩].

أي أنه بدأ بالتطلع للسماء بفطرته الصافية باعتبار العلو هو لا شك موطن مالك السماوات والأرض فلما رأى الشمس والقمر بازغين فكر في أنهما الإله الذي يطل بقدرته على خلقه لكن عند

غيابهما أيقن بفطرته الصافية أيضا أن الغياب والغروب من صفات النقص وهذا محال على كمال الإله المعبود..

فتوجه حينئذ بدعائه إلى الله ﷻ طالبا الهدى والرشاد فجاءه الجواب الساطع بالنبوة والرسالة..

وهكذا..

بدأت تجربة إبراهيم عليه السلام بالشك ثم بالبحث ثم باليقين التام الكامل الذى لا يتزعزع لكونه أصبح يقينا مؤيدا بالعقل والقلب المطمئن..

هذا اليقين نفسه هو الذي جعله يستسلم لقضاء قومه بحرقه فى النار دون أن تهتز له شعرة واحدة.

وتذكر كتب التفاسير واقعة شديدة الدلالة عن مدى يقين إبراهيم الذى جاء ثمرة تجربته الفريدة فحينما قضي قومه إلقائه فى النار كان قد أوحى إليه بالفعل وجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة..

وألقاه قومه بالمنجنيق نحو النار..

وبينما هو فى الهواء مقذوفا نحو لهبها المستعر عرض له جبريل نفسه عليه السلام وسأله: «يا إبراهيم.. ألك حاجة».

وسؤال جبريل هنا دون تدخله لإنقاذه كان بسبب أن الملائكة لا تقدم على فعل دون تكليف إلهى مباشر ولم يأت التكليف لجبريل وقتها لهذا رد إبراهيم عليه السلام قائلًا فى عزم: «أما إليك.. فلا»

يقين صادق العزم لا شك فيه فرغم أن هذا الذي يسأله هو رسول ربه إليه ورغم أنه مقذوف نحو نار مستعرة إلا أنه لم يطلب النجاة من جبريل عليه السلام ثقة في وعد الله له بأن النجاة ستأتيه حتما لهذا لم يبال باستعجالها..

ولأن الله عز وجل يجزى الفعل بمثله.. واليقين بمثله..

فلم يجعل نجاة إبراهيم على يد جبريل كذلك لم يأمر الله ملك الريح وملك المطر بالتدخل لبعثرة النار أو إطفائها..

بل تدخل الله عز وجل بذاته العالية فقام بتغيير قانون وطبيعة النار نفسها لأجل إبراهيم جزاء على ثقته ويقينه الباهر..

فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فهذا هو الإيمان الذى يقبله الله تعالى من عباده المخلصين وليس له جزاء إلا أرفع درجات الجنة ولا يوجد عمل يعدل الإيمان اليقينى الذى لا يهتز لأى اختبار بالدنيا..

وهذا هو بذاته الإيمان الذى جعل من أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو صاحب أرفع منزلة بعد كافة الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهو وفق نصوص الحديث أفضل رجل بعد النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعد سائر الرسل والأنبياء..

وما بلغ مكانته تلك إلا بدرجة صدقه وإيمانه.. كما قال عنه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ما سبقكم أبو بكر بصلاة أو بصيام وإنما سبقكم بشئ وقر في قلبه».

والمتأمل لأعمال كبار الصحابة والراشدين ربما يجد من هم أكثر عملا منه لكن مقياس الأفضلية فى درجة الإيمان تعدل أعمال الأمم المتكاثرة..

ويكفي أبا بكر موقفا واحدا لكى يجعله الله أفضل رجل فى أمة الإسلام وهو موقفه يوم وفاة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيث كان الوحيد بين سائر الصحابة الذى ظهر متمالكا لنفسه كاتما لمشاعره بيقين الصدق متقبلا لحكم الله النافذ..

فالعبرة كلها فى درجة الإيمان..

والإيمان لا يبلغ مراتب الصدق الكامن إلا إذا كان عن اقتناع عقلي عتيد يصاحبه اطمئنان القلب وهذا لا يتأتى بغير الحوار والمناقشة وتقبل تجارب بلا كلل أو ملل بشرط واحد..

أن تكون تجربة الشك أو الشبهات نابعة بالفعل من عقل حائر يريد الفهم الصحيح ويريد الحقيقة فعليًا أما إن كان عقلا يجادل عن هواه فهذا لا تنفعه المناقشة ولا غيرها.

❖ **متى بدأت فكرة الإلحاد ؟!**

الذى لا يعرفه الكثيرون أن فكرة إنكار وجود الخالق بالكلية هي فكرة ظرفية في التاريخ البشري بمعنى أنها ليست فكرة سليمة من الناحية العقلية لدى الفلاسفة أصلًا..

بل كانت تلك الفكرة من بداياتها عبارة عن فكرة متعلقة بظرف محدد زماني أو مكاني تماما مثلما انتشرت فكرة الإلحاد فى عصر الآلة والتطور العلمى فى منتصف القرن العشرين..

لكنها على المستوى الفكرى فى التاريخ البشري فهى فكرة مستهجنة وساقطة حتى عند الفلاسفة الوثنيين أصلا !

وثمة ملحوظة شديدة الأهمية أيضًا..

وهى أن فكرة الإلحاد كفلسفة ظهرت فى الغرب الأوربي أصلًا ولكن الحضارات الشرقية على امتداد التاريخ لم تعرف هذه الفكرة أو تلاقي فيها رواجًا..

ولعل السر في ذلك يكمن فى طبيعة الشرق نفسه سواء الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط حيث أن المرجعية الثقافية بها اختلافات جذرية بين العقل الشرقي والعقل الغربي.

ولعل أشد أنواع الفوارق بين الشرق والغرب يكمن فى مسألة العقيدة بالأصل سواء كانت العقيدة الدينية أو العقيدة الوطنية..

وقد كشف لنا الدكتور مصطفي محمود[1] فى حلقاته المتميزة عن معجزة المخ البشري وفسيولوجيا المخ كشف لنا عن تلك الحقيقة وهذه الفوارق مستندا فى ذلك إلى أقوال علماء الغرب أنفسهم من أوربا الشرقية والغربية [2] فقد خرجوا علينا بعد انتشار دراسة فسيولوجيا المخ بهذه النظرية.

---

(١) مجموعة حلقات (المخ البشري) للدكتور مصطفي محمود من برنامج العلم والإيمان.

(٢) يعود الفضل فى تطور علوم فسيولوجيا المخ للعلماء الروس وهذه مفارقة عجيبة لأنهم قدموا لنا فى الجانب العقائدى عطاءات علمية كثيرة تكشف عن الجوانب=

وكان الإكتشاف العجيب والرهيب لهم أنهم عندما درسوا الصفة التشريحية للمخ البشري وجدوا أن المخ ينقسم إلى نصفين..

النصف الأيسر وهو المسئول عن الجانب العملى فى حياة الإنسان والنصف الأيمن وهو الجانب المسئول عن الفنون والعقائد والقناعات والإبداع..

بمعنى أن الفص الأيسر هو الفص المسئول عن الجانب الحركى والعملى فى حياة الإنسان بينما الفص الأيمن هو المسئول عن التفكر والإبداع.

وكانت المفارقة التى اكتشفها علماء فسيولوجيا المخ أن الحضارة الغربية الحديثة أدمنت الإعتماد على الفص الأيسر الخاص بالشق العملى وأهملت كثيرا فى جوانب الإبداع تحت تأثير التقدم التكنولوجى والحياة العملية الخالية من العاطفة والمتسمة بالجمود..

=الغامضة فى الفص الأيمن للمخ رغم كون روسيا هى البلد التى نشأت فيها عقيدة الشيوعية مهد الإلحاد المعاصر.

وقد وصف هؤلاء العلماء حضارتهم بأنها حضارة الفص الأيسر !

وهذا ما يختلف جذريا عن طبيعة الشرق كله..

فالشرق متأجج العاطفة إلى حد التطرف وتعلو فيه استخدامات الفص الأيمن بالشكل الذى يغطى على استخدامات الفص الأيسر..

فالعقائد والفكر والفنون والأديان تعلو قيمتها فى الشرق إلى حد مذهل هذا بغض النظر عن طبيعة المعتقد نفسه فرغم تعدد الأديان فى الشرق - من الصين حتى المغرب العربي - إلا أن نقطة الإتفاق بين سائر العقائد هى تعصب أتباعها لها والحرص على بقاء جذوتها متقدة فى النفوس.

وهذا ينسحب أيضًا إلى العادات والتقاليد والموروثات حيث يعتز الشرق عموما بهذه الأمور المعنوية بالشكل الذى تجعله يضحى بالجانب العملى أو جانب المصلحة الشخصية.

وهذا أيضًا يفسر لنا ظاهرة معروفة..

وهى ظاهرة زيادة الإنتماء الوطنى للعرق والأرض عند الشرق بينما فى الغرب لا تعلو فيه هذه العاطفة على عاطفة المصلحة الشخصية..

فالفارق الرئيسي بين الإنسان الشرقي والغربي فى هذا الجانب أن الشرقي لديه الاستعداد للتضحية بحياته فى نظير أمور معنوية متكاثرة تشمل إنتماؤه للقبيلة والأسرة وللشرف والقناعات والعادات والتقاليد والأوطان بينما تتضاءل هذه القناعات عند الإنسان الغربي الذى يجعل إنتماءه فى المقام الأول لنفسه وأسرته..

ليس معنى هذا أن الإنتماء الوطنى لدى الغرب غير موجود أو متضائل بل هو موجود ولكن ليس بنفس الحرارة الموجودة لدى الشرق..

ولعل أبرز مثال على ذلك هو تجارب الإحتلال الأجنبي بين الشرق والغرب

ففي الغرب يؤمنون بقانون القوة وقانون الأمر الواقع ولديهم شريحة كبري من مجتمعاتهم تقبل بالتعاون والإنتماء للمحتل عند تفوقه عليهم وهو ما اتضح جليا فى فترة الحرب العالمية الثانية مثلا عندما غزا هتلر أوربا كلها وقام بتجنيد أهل البلاد المحتلة فى جيوشه فاستجابت له شرائح عريضة من مجتمعاتهم..

فقانون القوة والأمر الواقع موروث ثقافي غربي معروف..

ففي فترة حضارة الرومان واليونان فى أوربا كانت الممالك المتناحرة تصطدم عسكريا ببعضها البعض والجيش المهزوم يكون من حق المنتصر أن يضمه إلى جيشه للقتال من أجله بلا غضاضة [1].

(١) يظهر هذا واضحا فى المثيولوجيا اليونانية وقد قدمته السينما الأمريكية فى عدة أفلام أشهرها فلم (troy) حيث يظهر الملك أجاممنون فى بداية الفيلم يستعد لحرب مع إحدى الممالك ويكون الإتفاق بين أجاممنون ومنافسه على أن المنتصر من حقه أن يضم الجيش المهزوم لمعسكره والقتال من أجله في أى معركة قادمة.

أما في الشرق فتظل الشريحة الأعظم من مجتمعاتهم تنظر للإحتلال على أنه احتلال ليس له حق في الحكم والتحكم ويظل المجتمع ينظر بعين الإزدراء إلى كل متعاون مع الإحتلال باعتباره خائنا لوطنه ودينه وعشيرته مهما طال مكوث الإحتلال

وقد ظهرت هذه العقيدة الشرقية فى عشرات الأمثلة قديمًا وحديثًا..

فالصين القديمة رسخت تحت الإحتلال من عدة حضارات لكنها احتفظت بعقيدتها المستقلة وأيضًا تعرضت مصر لاحتلال الرومان واليونان والشيعة الإسماعيلية وكان الرفض الشعبي مطلقا لعقائد هذه الإحتلالات التى جاءت بالقوة الغاشمة واستمرت لقرون متطاولة ورغم هذا ظل الرفض المصري قائمًا..

وهناك حالة وحيدة يقبل فيها العقل الشرقي الإنتماء لحكم خارج عنه وهى حالة الإقتناع الرسالى والدينى..

كما حدث في مصر مع دخول الإسلام ومن قبله مع دخول المسيحية[1].

وفي العصر الحديث تعرضت مصر للغزو الفرنسي والإنجليزى فاستمرت المقاومة ضدهم لا تهدأ حتى رحيل المحتل بينما عندما جاء العثمانيون قبلهم المصريون لعدة قرون نظرًا لاتفاق العقيدة بينهم وبين المصريين..

الشاهد من هذا أن عاطفة الشرق العقائدية متأججة لا تهدأ..

ولعل هذه الحقيقة هى التى غابت عن ذهن الفكر الإسرائيلي الساعى بكل قوة للتطبيع مع الدول العربية -رغم كونهم أعداء

(١) دخلت المسيحية كدعوة دينية إلى مصر فآمن بها جزء كبير من الشعب المصري وعندما جاء الرومان لاحتلال مصر حاولوا بشتى الطرق إجبار أتباع الكنيسة الشرقية فى مصر على تغيير عقيدتهم للإنتماء لمعتقد الكنيسة الغربية فرفض المصريون ذلك لقرون وتعرضوا في سبيل هذا للقتل والتشريد مدة طويلة حتى جاء الفتح الإسلامى بالدعوة الحرة فقبله المصريون.

للعرب- وسعيهم الحثيث لتطبيع العلاقات بينما الرفض الشعبي العربي يظل متأججا لهذا التطبيع محاربًا له.

يحدث هذا رغم أن الظاهر على الساحة هو التفوق الإسرائيلي في مقابل الضعف العربي.

ورغم هذا فالعرب -على ما فيهم من الإنهزامية- يرفضون السعي الحثيث لعدوهم المتفوق لتطبيع العلاقات معهم..

والعاطفة الغربية شبه معطلة -لا سيما منذ عصر النهضة والإنقلاب على الكنيسة- حيث تجددت نبتة الإلحاد القديمة التي ظهرت على استحياء في الفكر الغربي القديم.

فالفلسفة الغربية القديمة ذاتها نبذت فكرة الإلحاد أصلا ولم تكن ذات شعبية عند ظهورها باعتبارها فكرة لا تستقيم مع العقل المفكر.

لكن نظرا للطبيعة الغربية نفسها ظهرت فيها قديما ولكن بدون شعبية واضحة.

بمعنى أن التاريخ البشري المقروء الواصل إلينا لا ينقل لنا فكرة الإلحاد كفكرة لها شعبية بين أهل العقل بل إنه منذ نشأة الفلسفة القديمة فى عصر اليونان الأول والإختلافات بين الفلاسفة مقتصرة على اختلاف نظرة كل منهما لطبيعة القوى المجهولة المتحكمة فى الكون.

لكن لم يكن هناك اختلاف بينهم على ضرورة وحقيقة ولزوم وجود القوة الطبيعية الخلاقة المؤثرة فى الكون ونظامه..

والمطالع لتاريخ الفلاسفة الأوائل في حضارة الإغريق يلمح أسماء سقراط وتلميذاه أفلاطون وأرسطو باعتبارهم الآباء المؤسسون لفن الفلسفة

وهؤلاء المؤسسون اتفقوا فيما بينهم على فكرة «القانون الطبيعى» والتى اعتبروها الثابت الوحيد فى الحياة والكون واختلفوا فقط فى مدى التأثر البشري على الأرض بنظرية القانون الطبيعي لكنهم جميعا أقروا بوجود هذا المسمى وباعتبار أن القانون الطبيعي

هو التعبير الذى يبين أن هناك فى الكون قوة طبيعية موجودة وفاعلة ولابد أنها تتحكم فى نظام الكون واتساقه وهندسته الغير بشرية وقواعدها التى تحفظ نظام الحياة.

وكانت الإختلافات بينهم فى طبيعة العلاقة بين القانون الطبيعي وبين القانون الأرضي والطريقة التى ينبغي أن يتعامل بها البشر مع تلك القوة [1].

ولو أننا ترجمنا هذه الأفكار إلى الثقافة الإسلامية فسنقول بأن فلاسفة اليونان عبروا عن وجود الله تعالى باسم «القوة الطبيعية» وعن الشريعة الإلهية باسم «القانون الطبيعي» وعبروا عن العبادات والإلتزام البشري تجاه الخالق باسم «العلاقة بين القانون الطبيعي والوضعي».

(١) القانون الطبيعي، د. طه عوض غازي، مكتبة جامعة عين شمس.

ولذلك نجد أن فكرة الإلحاد التى تعنى إنكار وجود الله في المطلق هى فكرة طارئة وشاذة عن مضمار الفكر البشري في المطلق وهذا أمر طبيعي..

فنظريات الإلحاد منذ ظهورها وحتى ظهور نظرية التطور وقفت عاجزة عجزًا تامًا عن تفسير الظواهر الكونية المختلفة وعن إيجاد منطق عقلي يفسر بالحد الأدنى من التعقل معنى ووجود الحياة وانتظامها على هذه الدقة المذهلة التى يؤكدها العلم عبر العصور.

لذلك كانت بداية فكرة الإلحاد فى الفلسفة القديمة بداية مرفوضة وظهرت على يد فيلسوف يونانى هو (ثيودوس) الذى عاش في زمن بطليموس إبان الإحتلال الإغريقي لمصر.

وبطبيعة الحال تعرض للمحاكمة والتهديد وصدر الحكم عليه بالإعدام لكن صداقته ونفوذه بذوى البلاط أنقذه من الموت.

وتطورت أفكاره بعد ذلك مع عدة فلاسفة مثل إبيقور الذى أعلنها صراحة من أنه لا يري داعيا أو عقيدة تدفعه للتخلى عن

اللذات الحسية [1] وأنه لا يري ضرورة للإيمان بالحياة بعد الموت وغير ذلك من العقائد التى كانت مستنكرة حتى فى ذلك العصر الوثنى وبالتالى:

فالإلحاد فى بذرته الأولى نشأ من الغرب ولكنه تسرب للشرق مع بداية الإتصال بين الحضارة الفارسية والفلسفة الغربية قبل الإسلام.

وللأسف استمر هذا الإتصال بعد ذلك وظهر مجددا فى عهد الخليفة العباسي المأمون الذى سمح ونشر ورعي ترجمة كتب الفلسفة اليونانية القديمة للعربية وحرص على إدخالها فى العقائد الإسلامية وكانت معظم المترجمات اليونانية عن الفلسفة الأصلية

(١) وهذا يؤكد ما قلناه من أن الإلحاد فى أصله وأغلبيته يقوم على نبذ فكرة التشريع وتحديد الملذات الحسية ولكن هذا لا يمنع من وجود الإلحاد الفكرى التائه المتشكك فى عقائد الإيمان

لأفلاطون وأرسطو وهى كما قلنا فلسفة تنبذ فكرة الإلحاد لكنها تقدم دور العقل على النقل.

ولكن مع هذا تسربت أفكار ثيودوس في تلك الترجمات وأنعشت فكرة الإلحاد مجددا فانتشر نوعا في الشرق ولكنه قوبل أيضا بحرب ضروس كما هو متوقع..

ومن الملحوظات الهامة فى تلك الفترة..

أن نوعية الإلحاد القديم لم تشتمل فى مضمونها على الفكرة المتطرفة الرافضة كليا لوجود الله ولم تظهر قط تلك الفكرة القائلة بأن الحياة نشأت بالصدفة أو بالطفرات.. الخ هذا الهذيان..

بل كان كل مضمون أفكار الإلحاد القديم ينحصر على فكرة رفض النبوات ورفض الشرائع ورفض اختصاص الإله بالتشريع وتحريم الفواحش وفرض النذور والقرابين والعبادات..

لكن فكرة وجود الله فى أصلها كانت موجودة لذلك اشتهرت مقولة ملاحدة تلك الفترة القائلة «من أين جئتم بأن الله اختص أقواما دون غيرهم بالنبوات».

فنستطيع القول بأن فكرة الإلحاد من بداية ظهورها فى اليونان كانت فكرة تقوم على الإيمان بحقيقة وجود الله لكنها لا تؤمن بسلطة الله على البشر ولا تؤمن كذلك بالمعجزات أو الغيبيات بل يقتصر الإيمان على المحسوسات والموجودات..

من هنا ندرك أن التطرف في فكرة الإنكار الكلى لوجود الله لم تكن بالفكرة المطروحة أو حتى بالفكرة التى يقبلها عقل الفلاسفة القدامى حتى هؤلاء الذبن جحدوا سلطة الدين.

وهذا كما قلنا أمر طبيعى فالإنكار الكلى لوجود الله لا يمكن أن يجد تفسيرا عقليا واحدا لظواهر الخلق.

فمن أين جاء الكون ومن أين انتظمت حركته ومسيرته مع هذا الحجم الهائل والأجرام الغير متصورة وشواهد الدقة غير التقليدية

فى المخلوقات والتناسب الرهيب بين الكائن وبيئته وأنظمة التنوع اللامتناهى فى المخلوقات والتباين الرهيب بين صفاتها.

فالعقل البشري - الذى يتشدق به الملحدون أنفسهم - هو نفسه الذى ينفي نفيا مطلقا نظرية «الصدفة» التى يبنى عليها الملحدون أوهامهم !

فكيف يمكن أن نفسر بالصدفة وجود ملايين من أنواع المخلوقات تحت تصانيف هائلة لا علاقة لها ببعضها البعض.

وليت أن الإختلاف والتباين يقتصر على التقسيم الرئيسي للمخلوقات بين حيوان وإنسان وطيور بل يمتد الإختلاف داخل النوع الواحد إلى حد مذهل.

فبعض أنواع الزهور والزواحف يصل عدد فصائلها إلى ثلاثين ألف نوع لكل نوع منها صفات دقيقة متوارثة داخل التصنيف الضيق على نحو يستحيل معه تصور أن كل هذه الأنواع جاءت من أصل واحد وخلية واحدة.

❖ **إعادة إحياء الإلحاد فى العصر الحديث:**

تضافرت عدة عوامل على ظهور فكرة الإلحاد الكامل فى بدايات عصر النهضة..

وذلك بسبب الإنقلاب الفلسفي الهائل في الحضارة الغربية..

فالفلسفة الغربية نشأت فى البداية على يد الثلاثي سقراط وأفلاطون وأرسطو وظهرت معهم أو فى عصور قريبة منهم الفلسفة المخالفة لهم كالفلسفة الرواقية وفلسفة السفسطائية وغيرها..

ثم مرت القرون وجاءت المسيحية وغزت أوربا.

ولكن أوربا لم تتخل على الفلسفة وساعد على ذلك أن المسيحية كديانة لا تحمل نظرية فلسفية تعالج شئون الحياة والخلق

وبالتالى دخلت الفلسفة اليونانية بقوة إلى الدين المسيحى بأوربا وتشكلت عقائد جديدة استعانت بالجانب الفكرى الذى توفره الفلسفة.

ومن المثير أن أوربا منذ ذلك العهد لم تعرف تطورا فلسفيا مكملا أو ميراثا لعصر الفلاسفة القدامى واستمرت مع الفلسفة القديمة الممزوجة بالعقيدة المسيحية دهرا طويلا حتى بدايات عصر النهضة.

وهنا حدث الإنقلاب المدوى..

حيث ظهر فى العصر الحديث فلاسفة ما يسمى «العقد الإجتماعي» وهى الفلسفة السياسية والإجتماعية التى برزوت العلاقة بين الحاكم والمحكوم ومهدت لظهور فكرة الدولة الحديثة والتى قام بها «جان جاك روسو» ورفاقه «لوك» و«هوبز» من فلاسفة عصر النهضة الذين مهدوا للثورة الفرنسية[1].

(١) لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة كتاب «القانون الطبيعي»، د. طه عوض غازي، مصدر سابق.

تكمن خطورة فلسفة العقد الإجتماعي أنها جاءت بإنقلاب تاريخى على فلسفة «القانون الطبيعي» التى اتفقت عليها الفلسفة اليونانية القديمة ظلت لعشرات القرون تحكم العقل الأوربي.

فقد هدم روسو وهوبز ولوك نظرية القانون الطبيعى وأنكروا وجوده وكان معنى هذا الإنكار إنكار دور الطبيعية الميتافيزيقية للكون والإتجاه للنظريات الفيزيائية الحديثة التى تقوم على العلم والتجريب المادى المحسوس حتى فى مجال العقيدة والأديان.

وساعد على ذلك بالطبع ثورة الشعوب الأوربية على التحكم الرهيب للكنيسة وقصور الحكم وحكمهم باسم الإله والتعسف الجبري مع العمال وطوائف الشعب مما مهد الأرض لأفكار الإلحاد الدينى القائم على رفض سيطرة الكنيسة والتى أدت فيما بعد لرفض فكرة ربط الدين بالإلزام التشريعي على الأفراد

وكما هو معروف..

تسببت نظرية العقد الإجتماعي في قيام الثورة الفرنسية التى مهدت لعصر النهضة الحديثة فى أوربا وساهمت دولة نابليون بونابرت فى تحجيم وتقليص دور الكنيسة شيئا فشيئا بالقوة الجبرية وإنهاء عصر سطوة رجال الدين تمامًا.

وهنا تم تطبيق نظرية العقد الإجتماعي التى تنظم الحكم ونظام الدولة تنظيما لا علاقة له بالدين أو السلطة الإلهية بل أنشأت النظام العلمانى الكامل.

وظهرت أيضًا فكرة اعتبار الدين مجرد تجربة شخصية لصيقة بالفرد لا ينبغي أن تنصرف للمجتمع تحت أى مسمى من المسميات باعتبار أن الإيمان بوجود الله من عدمه أمر شخصي يخضع للحرية الفردية وليس هناك سلطة جبرية على حياة الأفراد.

ومن المضحك حقا أن العلمانيين العرب أرادوا نسخ ونقل التجربة الغربية بالكامل وتطبيقها على الإسلام فى تقليد أعمى ليس فيه ذرة عقل.

فالذى لم ينتبه له العلمانيون ومدعى الإلحاد فى العالم العربي أن هناك فوارق ضخمة بين تجربة أوربا وتجربة دولة الإسلام.

فالدين فى أوربا كان سببا رئيسيا فى تخلفها وجور الحكام ومعيشتها فى عصور الظلام.

بينما الدين فى الحضارة العربية كان هو السبب الرئيسي والوحيد لنشأة الحضارة العربية بأكملها وتوحد عرب الجزيرة وبداية عصر النهضة الحقيقية فى شتى العلوم على امتداد خلافة الراشدين والأمويين والعباسيين.

كذلك تجاهل العلمانيون العرب أن الدين فى أوربا عطل العلوم وحاربها في نفس الوقت الذى كان فيه الإسلام فى بغداد والأندلس سببًا رئيسيًا فى انتشار علوم الطب والفلك والكيمياء والجغرافيا والآداب والفنون.

أيضًا تجاهل العلمانيون العرب حقيقة علمية راسخة وهى أن الدين الغربي كان دينا متسلطا يتحكم فيه رجال الدين بسلطة إلهية

على الأفراد حتى وصل بهم العته لبيع أراضي الجنة لأتباعهم بالإضافة إلى خلو الدين الكنسي من نظام حكم راسخ وانعدام آليات العلاقة السياسية بين الحكم والمحكوم.

بينما فى دولة الإسلام كان العلم على رأس إهتمام التشريع الإسلامى فلا يوجد من هو أعلى درجة فى السلم الإجتماعي من العلماء والمتعلمين وكل هذا برعاية الدولة التى أنشأت دور العلم الباذخة فى الشرق وفى الأندلس بحضارة لا زالت آثارها الإيجابية على أوربا موجودة لليوم[1].

بالإضافة إلى أن الإسلام لم يعرف مطلقا مفهوم «رجال الدين» بل هناك علماء الدين الذين يقتصر دورهم على الفتوى وتلزمهم أحكام ونصوص واضحة لا يستطيع الواحد منهم تعديلها أو اختراع شيئ فيها وإلا تم اعتباره مبتدعًا.

(١) شمس الإسلام تشرق على الغرب، زيجريد هونكة.

هذا فضلًا على وجود النظرية السياسية الكاملة لعلاقة الحكام بالمحكومين ووجود نصوص قانونية واضحة تغطى سائر مناحى الحياة وتنظم حياة الأفراد ويخضع لها المجتمع الإسلامى بكافة طوائفه دون تمييز.

فأين هذا من ذاك!

القصد أن أوربا فى تجربة النهضة الحديثة التى قامت على نظرية العقد الإجتماعي تخلصت من الدين ورجال الدين ومهدت الأرض لظهور فكرة الإلحاد المتطرف النافي لحقيقة وجود الله تعالى وهو ما ساهم التقدم العلمى فى تأجيج جذوته بالذات بعد ظهور نظرية داروين.

فمع انتشار الحرية العلمية بعد مرحلة العقد الإجتماعي وانتهاء التهديد الدينى الرهيب على البحث العلمى الذى كان يرمى علماء الكيمياء والفيزياء والأحياء بالزندقة والسحر.

انطلقت حمى البحث البيولوجي والجيولوجى من عقالها ولأن التطرف يولد التطرف..

فقد كان التطرف الدينى فى منع البحث العلمى دافعا لنشوء تطرف آخر فى المجال العلمى كرد فعل طبيعي على الكبت والمنع.

فانتشرت أفكار الإلحاد وصبغت البحث العلمى بطابعها نظرًا للانفلات الرهيب الذي طبع العلماء بطابعه فأصبحوا فى حالة حمى كاملة للبحث عن كل ما يناقض الدين وسلطة الدين على الأرض.

ووضع داروين نظريته فى أصل الأنواع التى تمهد لإنكار وجود الله وإنكار الخلق والتدبير الإلهى ثم طفق يبحث عن حفريات تؤكد نظريته المثير للدهشة حقًا..

أن داروين مبتكر نظرية أصل الأنواع التى صنفها فى وقت كان علم التصنيف فيه يحبو أول خطواته داروين نفسه عندما وضع النظرية وضعها كنظرية لا يمكن إثباتها فى عصره بل قال بأن نظريته تحتاج التقدم العلمي التراكمي الذي سيجد من الحفريات

والاكتشافات العلمية ما يؤكد انتماء المخلوقات لأصل واحد تفرقت بالصدفة المحضة !

وكلام داروين ونظريته كان مقبولا فى زمنه وعصره عندما كان أقصي اكتشافات علوم الأحياء هو اكتشافهم للخلية الحية والنظر إليها على أنها وحدة بسيطة من مكونات الكائن الحى.

لكن التقدم العلمى جاء بما يسحق نظرية داروين سحقا مع اكتشاف التصنيف الحديث واكتشاف حقيقة الخلايا الحية ومدى تعقيدها المذهل في التكوين بحيث أصبحت الخلية أمام العلماء أشبه بمصنع تكنولوجى هائل مدمج فى إطار بالغ الصغر اسمه الخلية.

ثم جاءت الضربة القاصمة مع اكتشاف الشريط الوراثي (DNA) والذى قدم الدليل العلمى القاطع على بطلان نظرية داروين..

ذلك أن داروين بنى النظرية على الإنتخاب الطبيعى وتأثير البيئة المحيطة على صفات الكائن الحى ولذلك عندما اكتشف

العلماء الشريط الوراثي الذى يحمل ملامح وصفات الكائن فى شريط معلومات هائل الإتساع.

أصبح قول داروين هنا عبارة عن وهم كبير لأن البيئة لا تؤثر في الصفات الأصيلة لأى كائن ذلك أن صفاته الأصيلة مسجلة ومبرمجة على الشريط الوراثي ولا يمكن أن تتغير تلك الصفات مهما اختلفت البيئة المحيطة أو مر عليها الزمن[1].

وبدلًا من أن ينتهى الجدل حول نظرية داروين بهذه الإكتشافات المذهلة وبعجز أصحاب نظرية داروين التام عن إيجاد حفرية صحيحة واحدة تثبت التطور !

فوجئ العالم فى منتصف الخمسينيات بالجمعية الأمريكية لعلوم البيولوجيا توجه نداء للباحثين كى يقيلوا عثرات نظرية داروين

(١) يرجى مراجعة كتاب «العلم يؤكد شكوك داروين»، فداء ياسر الجندى، مركز الفكر المعاصر.

والقيام بتحديثها استنادا إلى ما أظهرته المكتشفات العلمية الحديثة من عوار بالنظرية !

وهنا لابد من وقفة طويلة جدا أمام هذه الواقعة..

فنظرية داروين عند ظهورها عام ١٨٥٩ كانت مجرد نظرية فى علوم الأحياء..

لكنها فى القرن العشرين - ومع ظهور ما يسمى بالداروينية الجديدة - ومع ظهور النظام العالمى الجديد المحفز والمشجع على حركات الإلحاد وضرب الأديان بالعلم..

فوجئ العالم بتحول «نظرية داروين» من تاريخ بيولوجى إلى نظرية «أيديولوجية» وما أبعد الفارق بين الأيدلولوجيا وبين النظريات العلمية..

فالعلم يعتمد فقط على الأدلة التجريبية ولا تتدخل فيه الإتجاهات السياسية أو المعتقدات بينما الفكر الأيدولوجى بطبيعته

عبارة صراع ثقافي «دينى أو عرقي» تتجاذب فيه الأطراف الصراع حول معتقدات متضاربة وتنخر فيه أهواء التوجهات السياسية.

ورغم الاختلاف النظري والعسكري الكاسح بين المعسكر السوفياتى الشرقي والمعسكر الأمريكى الغربي إلا أنهما اتفقا على اعتماد نظرية داروين أو على الأقل الترويج لها ومعارضة أى اتجاه علمى لدحضها بحيث أصبحت نظرية داروين جزء من ثقافة العولمة لا يُسمح بمخالفته..

وهذا الأمر حقيقة واقعية أثبتتها التجربة العملية..

فالباحث «فداء الجندى» فى كتابه الماتع «العلم يؤكد شكوك داروين» خصص فصلا كاملا للمهازل العلمية التى تلقي الشكوك حول وهم الحرية العلمية فى الغرب.

وهو ما يعنى أن الغرب لم يتحرر فى الجانب العلمى من سيطرة الكنيسة بل استبدل سلطة الكنيسة القديمة بسلطة مستبدة أخرى تتمثل في المؤسسات العلمية والمراكز البحثية !

ففي الولايات المتحدة الأمريكية يكشف الباحث أن هناك حظرًا علميًا على أى مشروع بحثي يتضمن الإشارة إلى ضرورة وجود قوة أو مبرمج للكون والمخلوقات بل تكمن الكارثة الأكبر أن المؤسسات العلمية لديهم تسمح بكشف التصميمات الذكية والبرمجيات الفائقة للمخلوقات فى علوم الفلك والأحياء لكنهم لا يسمحون بأى موضوع بحثي يتناول مركز هذه البرمجيات أو مصدرها أو مُنشئها !!

وفى فضيحة علمية من العيار الثقيل..

كان العالم الصيني بروفيسور «ج - شين» المتخصص في أحافير الكيمياء الحيوية وصاحب العطاء المتميز فى هذا المجال تلقي الدعوة من إحدى المؤسسات العلمية الأمريكية كمحاضر زائر في قسم الجيولوجيا بجامعة واشنطن

وراح البروفيسور الصيني يشرح من خلال اكتشافاته في الحفريات مدى السقوط العلمي الذي تسببت فيه نظرية داروين

وكيف أنها أَخَرّت علم الأحياء عدة قرون - على حد قول د. مصطفي محمود-.

وهنا انبري أحد أساتذة جامعة واشنطن -وكان حاضرًا- ليلقي على مسامع البروفيسور الصينى تحذيرا من انتقاد نظرية داروين ولَمّح في تحذيره للعالم الصينى أن الصين دولة ليست ديمقراطية ولا تسمح بأى انتقاد سياسي أو علمى.

فرد عليه البرفيسور الصيني ساخرًا:

«إننا فى بلادنا لا نستطيع أن ننتقد الحكومة لكننا نستطيع أن نتقد داروين وأنتم فى بلادكم تستطيعون انتقاد الحكومة لكنكم لا تستطيعون انتقاد نظرية داروين!! ».

وتكتمل الفضائح العلمية وتبلغ ذروتها فى أمريكا عندما أصدر القضاء الأمريكى برياسة القاضي «جون جونز» عام ٢٠٠٥ م حكما عجيبا وغريبا بمنع وسحب أى كتاب مدرسي في مكتبات مدارس

ولاية بنسلفانيا يتحدث عن التصميم الذكى للكون والذى يفضي حتما للإيمان بوجود خالق !

وجاءت حيثيات الحكم عارا على حرية الفكر والعلم حيث ادعى القاضي أن هذه الكتب التي تتحدث عن التصميمات الذكية للكون هي مجرد أقوال غير علمية وعقيدة دينية متنكرة بقناع العلم! ولا ينبغي أن يطالعها الأطفال كى لا تؤثر على مستواهم الدراسي.

ولا نحتاج تعليقا على هذا الحكم وهذا الأسلوب التى يتم إجبار البحث العلمي فيه على الرفض المطلق لأى مناقشة علمية تتعرض لنظرية – من المفترض – أنها نظرية علمية.

إذ أن هذا الأسلوب يكشف في وضوح أن نظرية داروين منذ أربعينيات القرن الماضي تم إحياؤها عمدًا واعتبارها من مسلمات الأيديولوجيا الغربية التى تدافع عنها دفاعا عقائديا لا علاقة له بأصول البحث العلمى !

الفصل الثاني

إثبات صحة الرسالة بالمنطق العقلي من السيرة النبوية

الفصل الثاني

إثبات صحة الرسالة بالمنطق العقلي من السيرة النبوية

إن إثبات صحة النبوة والرسالة الإسلامية من خلال السيرة النبوية أمر يلفت نظر أي عقل وكل عقل.

وكما قلنا سابقا سنعتمد اعتمادا كاملا فى الروايات التاريخية على تلك الروايات الثابتة لدى كافة الأطراف أى الأحداث التى لا مجال فيها لخلاف بين المسلمين وغيرهم..

واليهود والمستشرقون عبر عشرات القرون لم يتركوا شيئا فى تاريخ الإسلام إلا وبحثوا ونقبوا فيه وأخذوا من التاريخ الإسلامي ما اقتنعوا به وثبت لديهم..

لهذا لن نلزم ملحدا بشئ كذّبه المستشرقون أو لم يقتنعوا به فى مسار البحث العلمى بل سنعالج تلك الروايات التى لا خلاف عليها بيننا وبينهم..

إن تاريخ السيرة النبوية يحمل أطنانا من الأدلة تجعل المرء يجزم حتما بأن محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما كان يقول شيئا من عنده قط بل ولا يقول شيئا يمكن أن يستطيعه بشري مهما أوتى من القوة والعلم والقدرات..

لأن مواقف النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خلال فترة الرسالة كان بها عشرات الأحداث التى اتخذ فيها مواقفا تخالف التفكير المنطقي البشري سواء فى مواجهة عداوة قومه أو حتى فى مواجهة أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وهى تلك المواقف التى كان يتحرك فيها بالأمر الإلهى المباشر دون تفكير أو اجتهاد أو تعديل.. [1].

(١) النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معصوم بعصمة الأنبياء ويتحرك وفق الأمر الإلهى وهذا في كل ما يخص الرسالة والتشريع ولكن هناك أمورا ترك الله فيها لنبيه حق=

ورغم مخالفتها للمنطق العقلي إلا أن كل تلك المواقف انتهت لنفس النتيجة التى أخبر بها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دونما زيادة أو نقصان بل حدثت بتمامها.

ولكونها أحداثا مستقبلية محضة لا يوجد لها أى ظواهر تنبئ بها فمن غير الممكن عقلا أن نقول أنها كانت اجتهادا أو رميًا عشوائيًا بالغيب..

وهذا ما سنعرض لبعضه بالتناول والمعالجة العقلية..

أولاً: إعلان النبي عليه السلام لأصحابه أنه رسول ومبلغ لا صاحب أمر

من بداية الدعوة جاء الأمر الإلهى للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يعلن لكل أصحابه والمؤمنين برسالته أنه ليس إلا مجرد رسول

=الإجتهاد والمشاورة لأصحابه وبعد أن يتخذ النبي عليه السلام القرار بالاجتهاد كان الوحي الشريف ينزل مؤيدا أو مخالفا للاجتهاد وفق الحاجة ولكن لم يكن أى مجال للإجتهاد فى الأمر المنزل بالوحى فحينئذ يكون التنفيذ واجبًا.

من عند الله يبلغ عن ربه ما يوحى إليه ولا يملك لنفسه أو لهم شيئا إلا ما بين يديه من القرآن..

وقد ورد هذا صريحا في القرآن الكريم حيث خاطب الله ﷻ نبيه ﷺ قائلًا: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

والمتأمل فى الآية الكريمة يجد أن تصريح النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأتباعه لا يمكن أن يصدر إلا عن نبي مرسل من الله ﷻ..

لماذا ؟!

لأنه لو كان مخادعا أو سياسيا يريد تأسيس دولة ومملكة باسمه فمن المستحيل أن يخاطب أصحابه الذين آمنوا به -ومعظمهم ضعفاء - بهذا الخطاب الذي يجعلهم فى مواجهة أنفسهم حيث أنه قال لهم صراحة أنه ليس إلا مبلغ بما يوحى إليه..

ليس هذا فقط..

بل إنه لا يدرى ما يُـفعل به ولا بهم وهكذا وضعهم أمام عقولهم وأنفسهم فلا مجال هنا لتحمله المسئولية والإلزام عنهم – ولو حتى بدفع الأذى من قومه – إذ أنه يلقي إلى الناس ما يُرسل إليه داعيا إياهم إلى توحيد الله دونما أى ترغيب فى أى شئ من الكسب أو المتاع أو الغنيمة

ولا يكتفي بهذا..

بل إن الله ﷻ أمره عند تشريع القتال ألا يلزم أحدا من أتباعه إلزاما على القتال بل أوجبه الله تعالى على نبيه ﷺ وحده ولم يطالبه بالتكليف المباشر إلا بنفسه أما فيما يخص المؤمنين فقد أوكلهم لأنفسهم أيضا فقال ﷻ.. ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [النساء: ٨٤]، والآية صريحة..

فالأمر بالقتال والجهاد فى سبيل الله أى نعم أنه واجب تكليف على المؤمنين لكنه تكليف متروك للمكلف به دونما أن يكون

للنبي عليه السلام سلطة الإجبار -ولو معنويًا- اللهم إلا ما أمر به نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن يحرضهم فقط أما التكليف فقد كان للنبي عليه السلام وحده.

والآن..

تعالوا بالمنطق العقلي نعالج هذه الدعوة ونقيسها بالقياس السياسي ونفترض أنها صادرة عن رجل أراد مُلكا أو جاها أو أراد عصبة ودولة..

وتخيلوا معى لو أن هذا الرجل يخادع من معه بدعوى النبوة كى يتبعوه فهل هناك منطق عقلي فى الدنيا يقول بألا يمنى أصحابه وأتباعه بالأمنيات التى تجعلهم يساندونه على الأقل..

بالعكس..

جاءهم بعكس هذا..

فقد أعلنها لهم صراحة لهذا الجيل المؤسس أنه جيل التكليف الأول الذى سيتحمل كافة المشاق والصعاب فى سبيل الدعوة دون أى مغرم أيًا كان إلا جزاء الآخرة.. وجزاء الآخرة وحده.

وأعلنها لهم أنه حتى عصر المكاسب لن يكون فى هذا الجيل أو لمعظمه بل عليهم التكاليف والواجبات والصمود ليمهدوا الطريق بعد ذلك لأجيال لم تأت بعد ستكون هى التى ستحصد ما زرعوه..

ويقول لهم صراحة أنه لا يملك من أمره شيئًا وأنه لا يدرى شيئا إلا ما علمه الله تعالى..

ثم يأتى الأمر الأغرب..

فعندما يأتى وقت القتال والحرب يعلن لهم أن التكليف القطعى بالقتال إنما هو له وحده كنبي مرسل وأنهم ملزمون بالجهاد وراءه لكن إلتزامهم ليس أمامه بل أمام ربهم وليس مأمورا بأن يأمرهم بالقتال كمؤمنين له بل يحرضهم ويحثهم فقط فمن شاء الجهاد أتى ومن رفض فليس عليه الإجبار.

ومثل هذا الخطاب لو أتى من رجل سياسة له مقصد دنيوى فى تأسيس دولة أو مملكة لا يمكن أن يثمر خطابه هذا عن شئ أصلًا.

بل إن المعالجة العقلية والمنطقية للأمر تجعل من رفض اتباعه أمرًا مفروغًا منه.

فأى رجل وأى عقل سيتبع رجلًا يدعوه لشقاء الدنيا دون مكاسب ثم يعلن له أنه لا يدرى ما يفعل به وإنما هو مبلغ ونذير..

ثم تأتى الغرابة كلها فى أنه لا يأمرهم بالقتال معه والذود عنه بل يعلن لهم أن التزامهم نحوه فى هذا الأمر غير قائم وأن الجهاد أمر إلزامى للقادر منهم تجاه ربه وحده ﷻ.

وبهذه الصورة..

نجد أنه من المستحيل - عقلًا - أن يكون النبي ﷺ ليس مرسلًا من رب العالمين فالخطاب هنا ليس خطاب خطاب التأسيس السياسي الذى ألفناه فى التاريخ البشري لأولئك الملوك والرؤساء والزعماء الذين يبذرون بذرة الدولة ويكافحون في سبيل تأسيسها..

فتأسيس الدولة السياسية – من المنطق الدنيوى – له تجارب لا تعد ولا تحصي عبر تاريخ البشر المكتوب منذ تجربة جنكيز خان الذى وحد قبائل المغول كلها تحت لوائه وانتهاء بأدولف هتلر مؤسس النازية.

فهذه التجارب كلها حملت خطابًا سياسيًا مخالفا تماما لمنطق الوحى الإلهى الذى قامت به دولة الإسلام والذى اعتمد اعتمادا كليا على ابتغاء أجر الآخرة وإهمال غرض الدنيا نهائيا من المعادلة بالإضافة لكونها دولة تأسست بنبوءات الوحى قبل أن تتأسس على أرض الواقع وجاء النموذج المتكامل لها وفق ما أخبر به القرآن والسنة تماما على نحو يخالف أى منطق عقلي يحاول البحث عن مبررات منطقية لطريقة تكوين دولة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثانيًا: موقف النبي عليه السلام من عمه وأصحابه

من المواقف المتفردة التى توجد فى السيرة النبوية وتمثل دليلًا عقليًا على أن النبي عليه السلام من المستحيل أن يكون رجلًا ادعى النبوة

بغرض الملك أو التحكم أو الزعامة وأنه لا شك مرسل من عند الله ولا يملك من أمر رسالته شيئًا إلا أن يكون مبلغا عن الله ﷻ والحكم بعد ذلك فى مصائر الخلق لله وحده..

هى بعض المواقف المنتقاه من أسرته وأصحابه..

فالشاهد لنا جميعا من التاريخ البشري أن مؤسسي الدول وزعماء الجماعات وآبائها الروحيين وكذلك زعماء المذاهب والأديان المدعاة والمختلقة المألوف فيهم هو تعظيم أنفسهم والإنفراد بالحكم على أتباعهم وعلى غيرهم..

كما أنه من المألوف عنهم تعظيم أسرتهم وأقاربهم لا سيما الأبناء وكبار الأسرة الداعمين لهم..

شهدنا هذا عبر التاريخ مرات عديدة..

ومنها «ساسان» المؤسس الأول للدولة الساسانية فى إيران وأسرته هى التى حكمت إيران قبل الإسلام بنحو ألف عام وصار

عرش إيران هو عرش كسري المنتمى للجد الأول ساسان وأبنائه وكان من أبناء ساسان عند التأسيس لدولته قائد جيشه..

فكانت الدولة الساسانية نموذجا فى امتلاك بيت الحكم لسلطة الملك والدين معًا وبالطبع يكون التقديس شاملا لكافة أفراد الأسرة بلا استثناء وميراث الحكم والدين فيهم وحدهم..

خاصة أن ساسان كان كاهن النار الأعظم لديانة المجوس قبل استيلاء الأسرة على الحكم أيضًا..

فساسان لم يقدم نفسه إلها أو ربّـا بل قدم نفسه باعتباره المتحدث الأعظم عن النار التى يعبدونها وصار تقديسه متفرع من تقديس النار نفسها..

المقصود من قصة ساسان هنا - ونموذجه المتكرر فى معظم البلاد القديمة - هو ظهور شخص الكاهن أو المبلغ أو المشرف الدينى الذى يقدم نفسه باعتباره المتحدث والأمين عن إرادة الإله المدعى به..

والدول القديمة كلها كانت إما تضم ملكا له الحكم وكاهنا له السلطة الدينية أو تضم الحكم والدين فى بيت واحد..

وفى جميع الأحوال تكون كلمة رجل الدين وأسرته ورفاقه ومن يختارهم من خاصته هم أقرب وأرفع الناس فى المنزلة الدينية..

وبالطبع تكون تلك السيطرة واضحة فى تميز طبقة رجال الدين بالمال والنفوذ الساحق بعكس باقي الشعب الذى يمتص هؤلاء قوته وأمواله لصالحهم باسم الرب المعبود.

وهذا هو النموذج الذى حكم ديانات أخرى فى بقاع مختلفة من العالم منها شرق آسيا التى لا زالت معابد الديانات البوذية والهندوسية والكونفوشيوسية تسيطر ماليا وسياسيا على أتباعها ويكون مقياس التميز فيها هو الإنتماء لأسرة الكاهن.

كذلك هناك مثال اليهودية والنصرانية فى الدول التى حكمها الحاخامات والقساوسة ـ مع استثناء فترة حكم أنبياء بنى إسرائيل ـ فإن كلها كانت نماذج للمتاجرة الدينية والسياسية بالشعوب وحاز

فيها رجال الدين سلطة الحكم والمال الغفير والتسلط الرهيب على الشعوب والإنفراد بفئة معينة تختارهم الهيئة الدينية دون غيرهم ويكون مقياس الإختيار الوحيد هو الولاء والقربي لا غير..

وكما رأينا..

فواقع المذاهب والديانات المختلقة التى جاءت لإنشاء قوة مسيطرة على الشعوب والتجارة على تلك الشعوب باسم الدين إنما جاءت لتجعل همها الأول النفوذ السياسي الطبقي على الناس ثم حيازة الأموال بطريقة جارفة وأيضا وراثة المناصب الدينية داخل الأسرة والمقربين والداعمين..

وهذا طبيعي فى أى مذهب دنيوى يقصد به أصحابه مكاسب الدنيا..

وتعالوا بناء على هذا المقياس نتأمل كيف تعامل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما جاءه الوحى وأعلن الرسالة وهل هناك تشابه أم تنافر تام بين منهج الإسلام وبين المناهج السابق ذكرها..

إن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - بإتفاق أهل السير - وُلد يتيما مات أبوه قبل مولده وتوفيت عنه أمه وهو دون السابعة من عمره وفى البداية كفله جده عبد المطلب بن هاشم ولما حضرته الوفاة أوصي به إلى عمه أبي طالب..

وبنظرة محايدة وبحثية نجد أن كفالة عمه أبي طالب كانت هى الشئ الواجب بغض النظر عن حب أبي طالب لابن أخيه من عدمه ذلك أن طباع العرب وقتذاك كانت تحتم هذا..

ولكن أبا طالب لم يفعلها لأجل صلة الرحم وحدها بل كان حبه لابن أخيه حبا جارفا عظيما وعندما كفله ضمه إلى أولاده ورباه معهم لكن الثابت أيضًا أن محمد عليه السلام كان هو الأقرب دون منازع إلى قلب عمه أبي طالب

ولم يكن يصبر على فراقه قط كما أن محمد عليه السلام شب محبا لعمه حبا شديدا ومتعلقا به لدرجة تفوق الوصف حتى أن أبا طالب خالف المعهود فى ذلك الزمان وسمح لابن أخيه أن يصحبه فى

رحلته إلى الشام وهو فى سن الطفولة نظرا لما أبداه الطفل المحب لعمه من بكاء وتعلق بعمه ورفضه الابتعاد عنه.

وهكذا..

نستطيع أن نقول أن العلاقة بين محمد ﷺ وابن أخيه كانت حتى فوق علاقة الأبوة التقليدية ولذلك ظل فى جوار عمه طيلة عمره ولم يكن محمد ﷺ يعدل بأبي طالب أحدا فى أهله أو فى قريش برمتها..

ثم ظهر الإسلام وبدأت الدعوة سرًا لثلاث سنوات آمن خلالها بالرسالة خديجة أولى الزوجات وأبي بكر أول الأصحاب وعلىّ بن أبي طالب أول الفتيان وورقة بن نوفل[1] عم السيدة خديجة وانضم للزمرة عدد من أشراف قريش وضعفائها كما هو معلوم..

(١) كان ورقة بن نوفل رضي الله عنه من كبار الباحثين عن الحقيقة حيث اعتزل مع مجموعة من قريش عبادة الأوثان وكان معه زيد بن عمرو بن نفيل ومجموعة أخرى=

ثم خرجت الدعوة إلى العلن بناء على أمر الله تعالى لنبيه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فلما خرجت الدعوة للعلن ثارت قريش وماجت وانطلقت في تعذيب واضطهاد كل من آمن بالإسلام ولم ينج من التعذيب إلا أشراف القوم وكبرائهم أمثال أبي بكر وعثمان وسعد والزبير وبقية المسلمين من العائلات الكبيرة الذين كانت عائلاتهم تحميهم من جبروت الكفار..

ثم انطلق التعذيب داخل عائلات المسلمين الكبيرة حيث قامت كل عائلة بتعذيب وإضطهاد من أسلموا من أبنائها..

وتعرض النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمحاولات اعتداء واضطهاد لم يستطع أحد أن يقف في وجهها إلا أبو طالب عم النبي عليه السلام حيث

=رفضت عبادة الأصنام وهو الوحيد الذى ظل حيا حتى مبعث النبي ص وبشره بأنه نبي آخر الزمان لكنه توفي بعدها مباشرة ولم يحضر بقية أحداث الدعوة.

كان أكبر زعماء قريش على الإطلاق لأنه وريث بنى هاشم سادة مكة..

وبالتالى..

بسط أبو طالب حمايته على ابن أخيه رغم أنه لم يؤمن بالإسلام أصلًا..

ولم يكتف أبو طالب ببسط الحماية بل واجه زعماء العائلات القرشية الكبري كبنى عبد شمس وبنى مخزوم وبنى عدى ممن جاءوا إليه ليطلبوا منه أن يأمر ابن أخيه كى يكف عن دعوته أو يسلمه لهم كى يقتصوا منه..

فغامر أبو طالب باتحاد هذه العائلات كلها على بنى هاشم واستمر مدافعا عن ابن أخيه وأمر بنى هاشم جميعا ممن آمنوا بالإسلام أو ممن لم يؤمن أن يتحملوا عواقب هذا التحدى..

وقامت قريش بمعاقبة بنى هاشم بالمقاطعة الإقتصادية المهلكة حيث ترك بنو هاشم بيوتهم فى مكة ونزحوا إلى شعب أبي

طالب قريبا من الجبال بناء على أوامر أبو طالب لهم لأنه خاف أن تقدم قريش على قتل النبي ﷺ.

فترك الهاشميون جميعا بيوتهم - عدا أبو لهب - وتحملوا الحصر داخل الشعب ونال منهم الجوع والضعف كل منال ومع ذلك احترموا قرار أبي طالب بحماية ابن أخيه..

القصد من هذا كله أن أبو طالب كان من البداية أقرب الناس للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأحبهم إليه فضلا على أنه استمر فى حمايته والذود عنه بكل ما يملك من طاقة وجهد ونفوذ حتى كاد أن يضحى ببنى هاشم كلهم فى سبيل حمايته..

وبلغ حبه للنبي عليه السلام أنه فضل حمايته على أن يجبره على التنازل عن دعوته مع أن المنطق يقول بأن أبا طالب كان من الطبيعي أن يحمى ابن أخيه لكن الحماية - منطقيًا تتوقف - إذا أصر على دعوته وعرض أمن عائلته كلها للخطر لكن أبا طالب ما فعل هذا

وترك محمد ﷺ يمارس دوره – رغم عدم إيمانه به – وبذل في ذلك كل ما يملك.

ثم مات أبو طالب وظل رافضا أن يؤمن بالإسلام حتى اللحظة الأخيرة وحزن النبي ﷺ حزنا شديدا لذلك..

والسؤال المنطقي هنا..

لو كان النبي ﷺ ليس مرسلًا حقا من عند الله ولو كان القرآن الكريم والإسلام ليسوا رسالة الله إلى البشر..

ولو كان الإسلام رسالة اخترعها النبي ﷺ..

فهل كان صعبا عليه أن يجد عذرا مقبولا لعمه الحبيب والذى بذل كل حياته دفاعا عنه لكى يجعله فى زمرة الداخلين للجنة ؟!

بالطبع لا..

كان يملك النبي ﷺ أن يجد عذرا مقبولا لهذا ويدعى نجاة عمه لو كان القرآن والرسالة ليستا من عند الله..

على الأقل يكفي أن يجعل هذا العذر هو الجهد الرهيب غير المسبوق الذى بذله أبو طالب دفاعا عن الإسلام ورسوله والمسلمين..

كان من الممكن أن يقول النبي ﷺ أن الله ﷻ استجاب لدعائه فأحيا عمه لدقائق وجعله يشهد الشهادتين خاصة وقد ثبت فى الحديث النبوى قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «إن لكل نبي دعوة مستجابة».

فلو قال أنه استغل تلك الدعوة لنجاة عمه لما كَذّبه أحد لكن النبي ﷺ كما ثبت فى الحديث جعل تلك لدعوة لأصحاب الكبائر من أمته يوم القيامة حتى يغفرها لهم رب العزة.

كان هناك ألف حل وحل أمام النبي ﷺ لحماية عمه من سمعة الكفر والشرك وجزاء النار فى الآخرة كان يمكنه ذلك لو أنه لم يكن نبيًا ورسولًا حقًا من الله.

لهذا جاء القرآن الكريم جازما بأن مصير أبي طالب في النار بل ونهى الله ﷻ نبيه حتى عن مجرد الإستغفار له.

يقول ﷻ.. ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

والآية نزلت ردا على النبي ﷺ عندما هم بالإستغفار لعمه فأعلن النبي ﷺ ذلك ولم يداريه أو يستره أو يغيره.

ومن الطبيعى أن نقول بأنه من المستحيل قبول هذه الواقعة لو لم يكن القرآن كلام الله ومحمد ﷺ رسول الله حقًا وصدقًا..

وفى المقابل.. تعالوا لنتأمل مذهبًا بشريًا فاسدًا ونراه كيف يتأول ويحرف النصوص كى ينجى أتباعه فالشيعة الإثناعشرية[1]

(١) فرقة من الفرق المنشقة عن الدين الصحيح والسنة النبوية وقد نشأت من الفرس المجوس عقب انهيار دولتهم لكى يعيدوا تعظيمها من جديد برداء إسلامى ولكى يحاربوا به أهل السنة الذين كانوا سببا فى إسقاط دولة فارس.

فرقة معروفة وشهيرة من المذاهب الفارسية المجوسية التى تسترت بالإسلام وبآل البيت وفى مذهبها ستجد تعظيما للفرس والمجوس والأكاسرة فى كل نص..

ويكفي أنهم وصفوا مهدى آخر الزمان بأنه المهدى الذى سيأتى من نسل الإمام الحسين ـ لا من نسل الحسن كما تقول الأحاديث الصحيحة ـ ومن زوجته الفارسية التى كانت إحدى بنات كسري عندما انهارت دولة فارس وتم أسر بنات كسري الثلاث وأخذ أحداهن الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما.

فلاحظ أيها القارئ العزيز أنهم حرفوا النصوص كى يجعلوا للفرس نصيب في مهدى آخر الزمان ثم قاموا بتكفير كافة الصحابة – عدا خمسة – وأولهم فى عقيدتهم هو عمر بن الخطاب بالذات وهو عندهم ألعن من إبليس.

وكل هذا لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذى فتح فارس ودكت جيوش الإسلام فى عهده دولة الفرس في القادسية ونهاوند وتأتى النكتة الحقيقية فى بقية الروايات..

حيث زعموا أن آخر ملك فارسي وهو كسري الذى أسقطه المسلمون لم يمت مجوسيا بل أسلم قبل موته وأنه أعلن بأن مجد الفرس سيعود على يد أحد أحفاده.

ويقصدون بأن هذا الحفيد هو المهدى الذى سيأتى من نسل الإمام الحسين من زوجته الفارسية تحديدا ابنة كسري[1].

فانظر كيف صنعوا فيلمًا كاملًا حتى يمجدوا دولة فارس من خلال الإسلام ويجعلون كسري نفسه مات مسلمًا كما يجعلون المهدى منهم وهو الذى سيعيد مجد المجوس

(١) تشتهر هذه الأحاديث بكثرة فى كتبهم الرئيسية مثل كتاب «الكافي» أعظم كتبهم وكتاب التهذيب والاستبصار وكتاب من لا يحضره الفقيه وكتاب بحار الأنوار أكبر كتبهم على الإطلاق.

ولم يتوقفوا عند هذا..

فمن المعروف أن قاموا بتمجيد «أبو لؤلؤة المجوسي» الذى قتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورغم أن أبا لؤلؤة مجوسي وقتل ثانى أكبر صحابي فى الإسلام إلا أنهم جعلوه مسلما بل ووليا من أوليائهم الكبار وادعوا أنه أسلم وقتل عمر المعادى لآل البيت ثم تكتل النكتة بأنهم صنعوا له في إيران مقامًا وضريحًا رغم كونه ميتا بالمدينة أصلًا لكنهم وجدوا حلًا بأن قالوا أن معجزة من معجزات الأئمة أتت بجثمانه من مكان مقتله إلى إيران وضريحه معروف هناك باسم «ضريح بابا شجاع الدين أبو لؤلؤة»!!!

أيضًا من مخازيهم الشهيرة أنهم كفروا بطلًا إسلاميًا عالى القامة مثل صلاح الدين الأيوبي واعتبروه كافرا ومعاديا لآل البيت!

والسر في ذلك أنهم لا يتحملون فى مذهبهم أحدًا يعادى أهوائهم أو يهدمها وقد فعلوا هذا مع صلاح الدين لأنه كان السبب

الرئيسي في هدم دولة الشيعة فى مصر وهى الدولة العبيدية الخبيثة المعروفة زورا باسم الفاطمية [1].

فمن خلال المقارنة البسيطة..

يتضح لنا مدى الفارق الضخم بين التنزيل الإلهى الحقيقي وبين النصب والإحتيال باسم الدين..

فمجموعة النصابين من مجوس فارس عندما ادعوا الإسلام وأحبوا هدمه من داخله قاموا بتلفيق الروايات واختلاق الخرافات التى تدعم هواهم حتى جعلوا من كسري وأبي لؤلؤة ـ لعنهم الله ـ

(١) الدولة الفاطمية لا علاقة بفاطمة الزهراء رضي الله عنها فإن مؤسسها الأصلي هو عبيد الله ابن ميمون القداح كان يهوديا وادعى الإسلام وأسس فرقته الشيعية التى تنتمي للمذهب الإسماعيلي واحتلوا مصر فترة طويلة قاومهم فيها المصريون وسموهم بالدولة الخبيثة كما عرض تاريخهم المؤرخ والفقيه جلال الدين السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء وسماهم باسم الدولة العبيدية الخبيثة

أئمة وأنصار لآل البيت وكفروا عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي

وهكذا هم أصحاب أى مذهب دينى أو سياسي يدعى الإنتساب لله ﷻ زورًا وكذبًا فإنهم لا يتحملون قط أن يجعلوا المخالفين لهم على حق أو حتى محايدين بل يخرجونهم من الدين بالكلية.

أما فى الرسالة السماوية الساطعة فقد جاء القرآن وحكم بكفر أبي طالب فأعلنها النبي ﷺ وصارت قرآنا نتعبد به نحن المسلمون إلى يوم الدين رغم كون أبي طالب هو العم الأقرب والناصر الأقوى للنبي ﷺ ولكن هذا ما نفعه شيئا عندما أصر على كفره.

وموقف آخر أيضا يجعلنا نجزم بصحة الوحى..

فرغم أن عم النبي الأحب والأقرب إليه هو فى عقيدة الإسلام كافر..

إذا بنا نجد أشخاصا من أعدى أعداء النبي ﷺ والإسلام فى الجاهلية ورغم هذا عندما أعلنوا إسلامهم فى فتح مكة قبل منهم النبي ﷺ..

ليس هذا فقط..

بل صاروا من زمرة صحابة النبي ﷺ وينطبق عليهم كل ما ينطبق على الصحابة من مكانة ومقدار رهيب فى الدنيا والآخرة..

فالقرآن الكريم فى عدة آيات بشر كافة الصحابة رضوان الله عليهم بالجنة -عدا ثلة المنافقين الذين ظهر نفاقهم فى أحداث الردة- والنبي ﷺ جعل من مجموعة أصحابه حرزا محفوظا أمر المسلمين بمعرفة قدرهم إلى يوم القيامة..

ولنا أن نتخيل أن أبا سفيان بن حرب دخل فى زمرة الصحابة هو وزوجته هند بنت عتبة وولداه يزيد ومعاوية رغم كل ما كان من تاريخ طويل لأبي سفيان وهند رضي الله عنهما فى عداء وحرب الإسلام..

فقد كان أبا سفيان من أهم زعماء قريش المحاربين للنبي عليه السلام وقت الدعوة ولم يشهد أول معركة وهى بدر لكنه كان زعيم وقائد حروب قريش كلها بعد ذلك من أحد والخندق وما بينهما وقتل وأصاب الكثير من كبار الصحابة وقتذاك وكانت زوجته هند بنت عتبة من أشد الداعمين له فى ذلك[1].

ولكنهما فى فتح مكة أعلنا الإسلام وصارا من الصحابة ولم يجدا من النبي عليه السلام كلمة اعتراض أو عتاب واحدة بل إن النبي عليه السلام

(١) من المناسب هنا أن نذكر حقيقة مهمة وهى واقعة مزيفة ومزورة بالكامل تتهم هند بنت عتبة أنها بقرت بطن حمزة رضي الله عنه فى معركة أحد وأكلت كبده وهى رواية ليس لها سند صحيح كما أنها تخالف منطق الأحداث لأن عداوة هند لحمزة فى الرواية الملفقة ليس لها مبرر لأن حمزة قتل عمها فى بدر بينما على بن أبي طالب قتل أخاها وهو أقرب لها من العم قطعا ومن الطبيعي أن تقوم بالتحريض على علىّ لا حمزة هذا بخلاف أن وحشي بن حرب لم يكن عبدا لهند بل كان عبدا لعقبة بن أبي معيط وهو الذى سلطه على قتل حمزة لأن حمزة رضي الله عنه قتل أباه فى بدر وهى الرواية الصحيحة والمنطقية.

كرّم أبا سفيان بمفخرة عند مجيئه لفتح مكة فقال «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

بل إن النبي ﷺ قبل إسلام وحشي بن حرب نفسه وصار وحشي من الصحابة أيضا رغم أنه قاتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي وشقيقه فى الرضاع ومن أقرب أعمامه إليه..

لكن النبي ﷺ لا يمكن أن يرد أحدا جاءه مسلما ما لم تكن معه آية واضحة..

ولو كان النبي ﷺ ليس مرسلًا حقًا وصدقًا من رب العالمين..

فما كان أهون عليه من استثناء أبي سفيان ووحشي بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية بن خلف وغيرهم من أولئك الذين قتلوا وعذبوا المسلمين وعادوه

كان النبي ﷺ يستطيع فى بساطة أن يعتبرهم ويعلن فى أصحابه أن هؤلاء الناس من المنافقين ويهدر دمهم ولم يكن أحد ليخالف أمره أو يكذبه..

لأن النبي ﷺ أعلن فى المدينة ما جاءه عن الله وجل فى أمر المنافقين وعلى رأسهم عبد الله أبي بن أبي سلول كبير المنافقين وكان الصحابة جميعا يعرفون أن ابن أبي سلول ومجموعته منافقون أعلنوا الإسلام وأبطنوا الكفر لكن الله ﷻ لم يأمره بقتلهم

رغم أن هذه المجموعة لم تظهر عداوة واضحة للنبي ﷺ ولم تمانع أو تعذب أحدا منهم لكن الوحى جاء قاطعا بنفاقهم فأعلن النبي ﷺ عنهم.

فلو شاء النبي ﷺ أن يضم أبا سفيان ووحشي وغيرهم من أعدائه لزمرة المنافقين لكان الأمر منطقيا ومقبولًا عقلًا..

لكنه لم يفعل.. وهذا يدل على أن النبي ﷺ لا يقض بهواه ولا يتحدث من عنده لأنه لو كان كذلك لما ترك الفرصة للإنتقام ممن عادوه وحاربوه أشد المحاربة

ولندع العقل يقارن بين واقعة كفر أبي طالب ـ العم الأحب ـ وبين واقعة إسلام أبي سفيان العدو الأكبر

وساعتها سندرك فى بساطة أن مواقف النبي ﷺ فى هذا الموضع لا يمكن أن تصدر من نفسه أو هواه.

وموقف آخر من مواقف السيرة..

حيث كان من عادة الصحابة رضي الله عنهم أن يسألوا عن مصير مشاهير قريش فى الزمن القديم أيام عبادة الأصنام حيث كان معروفا فى قريش عدد كبير من الشخصيات ذات الطبيعة السمحة والأخلاق العالية كما كان من بينهم مجموعة معروفة من الحنفاء وهم الذين رفضوا عبادة الأصنام وظلوا يؤمنون بدين إبراهيم ﷺ وحكم الله فى أهل

الجاهلية قبل الرسالة أنهم من أهل الفترة أى أهل الزمن الذي يغيب فيه الأنبياء والرسل فيعذرون بالجهل وحكمهم إلى الله يوم القيامة

إلا بعض شخصيات بعينها قد حدد النبي ﷺ مصيرهم إلى الجنة أو النار مثل زيد بن عمرو بن نفيل رفيق ورقة بن نوفل الحنفاء المشاهير قبل البعثة..

وورقة رضي الله عنه أدرك مبعث النبي ﷺ وآمن به وبشره بذلك..

أما زيد بن عمرو فقد توفي قبلها وكان من أشد الباحثين عن دين إبراهيم ﷺ ويكاد قلبه ينفطر لمشهد الأصنام بجوار الكعبة..

وعندما جاء ابنه سعيد بن زيد ـ أحد العشرة المبشرين ـ ليسأل النبي ﷺ عن مصير أبيه الموحد أثنى النبي ﷺ على زيد ثناء عظيما وبشر ولده بأن أباه سيبعث يوم القيامة أمة وحده.. وهذه كرامة عظيمة..

ووجه الإستدلال هنا..

أنه لم يرد عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تعظيما ومدحا وثناء لأجداده – الذين لم يدركوا الإسلام أصلًا – وما بشر بأن أحدهم فى الجنة رغم أنه كان من بينهم عبد المطلب جده أشهر زعماء مكة والرجل الذى كان معروفا بحسن خلقه ودعوته لقومه أن يتركوا الزنا ووأد الأطفال وغير ذلك من أمور الجاهلية كما أنه زعيم قريش الذى واجه إبرهة الحبشي عندما لهدم الكعبة.

كذلك كان جده هاشم الذى كان الزعيم المنفرد لمكة وقريش وكان معروفا بالجود والسماحة والكرم..

فهل يعتبر من المنطق العقلي أن يسكت النبي عليه السلام عن تعظيم آبائه – وهم أصلا معظمون فى قومه – بينما يثنى ثناء الخير كله على زيد بن عمرو وغيره من مشاهير الموحدين..

لا شك أنه لو لم يكن النبي ﷺ صاحب رسالة ووحى لكان من أعظم المعظمين لآبائه لا سيما وأن سيرة آبائه وسمعتهم تسمح بذلك..

وإلى موقف آخر له دلالة عبقرية وبالغة الذكاء..

ومن العجيب أن الذى فكر فى هذا الموقف هو أحد المستشرقين[1] واشتهر الإستدلال به بعد ذلك فقد لاحظ هذا

(١) حركة الإستشراق هى حركة فكرية أوربية فى الأصل نشأت قبل عدة قرون واستمرت إلى اليوم فى حركة الإستشراق الأمريكى المعاصر وهدفها هو البحث عن نقاط الضعف فى الإسلام على كافة المستويات من القرآن والسنة والسيرة والتاريخ وقد أفردت جامعات الغرب عدة كليات لدراسة الإسلام بمنهجهم وقد بذلوا جهدا خارقا وأثاروا ملايين الشبهات حول الإسلام ولم يفدهم ذلك بعد أن قام المسلمون عبر القرون بالرد على كافة شبهاتهم بردود علمية كاملة وهناك من المستشرقين من أعلن عجزه علانية وهناك أيضا من أعلن إسلامه رغم أنه دخل الإسلام للطعن فيه لكن فاجأته الأدلة وبقي الغالبية منهم فى صف الهجوم والتشنيع.

المستشرق أثناء دراسته للسيرة أن أبا لهب - أحد أعمام النبي ﷺ - كان من أشد المعادين له والمحاربين لدعوته هو وزوجته أم جميل..

وكان ذلك فى البدايات الأولى للدعوة حيث لم يكن قد نزل من القرآن الكريم إلا الشئ اليسير ومن ضمن أساليب حرب أبي لهب تجاه النبي ﷺ أنه كان يكثر من قوله «تبا له».

فنزل القرآن الكريم بسورة قصيرة يرد عن النبي ﷺ حيث قال الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١- ٥].

والسورة كما ترون واضحة وصريحة ومن بداية الدعوة تجزم بأن أبا لهب وزوجته من أهل النار..

وكانت ملاحظة المستشرق ذكية بالفعل..

فرغم عداوة أبي لهب للإسلام إلا أنه لم ينتبه – لا هو ولا بقية زعماء قريش – إلى طريقة متاحة أمامهم لهدم دعوة الإسلام تماما من بدايتها..

وذلك بأن يعلن أبو لهب بأنه دخل الإسلام وصدق بنبوة محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وعندئذ كيف يمكن أن يصدق المسلمون أنه من أهل النار وقد آمن ؟!

ولو فعل لما كان فى استطاعة النبي ﷺ أن يرده ذلك أن الآيات نزلت فى المرحلة المكية ولم يكن فى مكة منافقون لعدم وجود قوة وشوكة للإسلام يومئذ ولم يعلن القرآن وقتها أصلا عن فئة المنافقين وصفاتهم..

وبالتالى..

فالمنطق العقلي المحض يقول بأن رسالة الإسلام جاءت متحدية بهذه السورة تحديا علنيا فليس هناك أدنى مبرر عقلي لعدم استخدام أبي لهب لهذه الواقعة واستغلالها لهدم الرسالة.

والمبرر الوحيد هو حكم الله ﷻ من فوق سبع سماوات والذى منع أبا لهب ومنع كافة زعماء قريش من أن يحرضوا أبا لهب على إعلان إسلامه حتى لو على سبيل المخادعة.

ثالثًا: معاتبة الله ﷻ للنبي عليه السلام فى القرآن

من أهم الدلالات التى تؤكد صدق الوحى لرسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو مسألة مراجعة رب العزة لنبيه في القرآن الكريم..

فالذى ينظر لسيرة القادة والزعماء والمتألهين الذين ادعو النياية عن الإله أو ادعوا الإلوهية والرسالة عبر التاريخ سيجد قاسما مشتركا تقليديا بينهم وهو ادعاء العصمة التامة المطلقة إما بشكل صريح وإما بشكل ضمنى عن طريق عدم السماح بأى صوت معارض وحتى إذا أخطئوا خطأ فاحشا واضحا يلجئون على الفور للتبرير المتعسف ولا يعترفون مطلقا بوقوع الخطأ..

وقد رأينا عبر التاريخ أمثلة فادحة على ذلك..

ومن داخل تاريخ الإسلام نفسه ظهرت الجماعات المارقة المخالفة للسنة كالشيعة التى ضربنا بها الأمثلة السابقة..

وهم أيضا في هذا الباب لهم مثال واضح وفادح..

فقد أسس الشيعة مذهبهم ومنهجهم العقائدى على معطيات مستقبلية بشروا بها أتباعهم ومعطيات تاريخية أقنعوهم بها..

لكنهم وقعوا في ورطات كبري من حيث عدم مطابقة المستقبل للنبوءات المفتراه كذلك عجزهم عن تفسير التاريخ الذى مضي باستمرار ضد عقيدتهم..

لهذا كان الحل أمامهم باختراع عقيدة مفتراه أطلقوا عليها اسم «عقيدة البداء» وهى تعنى أن النبوءة التى يلقوها لأتباعهم إذا خالفها المستقبل والأحداث قالوا أنه الله ﷻ ـ حاشاه ـ قد بدا له أمر آخر غير الذى قضي به سابقا !!

وهذه العقيدة الخبيثة عقيدة يهودية فى الأصل واقتبسها الشيعة منهم وهى تُجَوّز على الله تعالى عدم العلم بالغيب أو النسيان !

وكان دافعهم - كما هو واضح - هو أن يخرجوا من المأزق الذي وقعوا فيه ألا وهو الإعتراف بالخطأ أو سوء التقدير..

من هنا يتبين لنا أن أى صاحب منهج بشري له أتباع لا يمكن أن يسمح لأتباعه أن يظنوا فيه الخطأ أو السهو أو النسيان أو سوء التقدير..

لكن هذا لم يحدث من النبي ﷺ مطلقًا.

فرغم أنه من المعلوم أن الأنبياء والرسل معصومون إلا أن هذه العصمة ليست مطلقة بل هى عصمة نسبية متعلقة بأحكام التبليغ حيث من المستحيل أن تجوز على الرسل أفعال الخطأ أو السهو عند تبليغه أحكام الرسالة..

لكن هذه العصمة مقترنة فقط بما يبلغه الله وحيا إلى نبيه المعصوم ولهذا ورد السهو والخطأ على الأنبياء والرسل فيما كان بعيدًا عن مسألة الوحى.

وقد عاتب الله ﷻ نبيه محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في عدة مواطن من القرآن الكريم ومنها:

* قوله تعالى عندما أذن النبي عليه السلام للمخلفين عن إحدى الغزوات حيث خاطب الله نبيه معاتبا فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

* عتابه للنبي عليه السلام في قضية أسري بدر حيث قضي النبي عليه السلام وأبو بكر بأخذ الفداء في الأسري بينما كان رأى عمر أن يضربوا أعناقهم لأنهم مستمرون في عداوة النبي عليه السلام ولو قبلوا فيهم الفداء سيعودون للقتال – وهو ما حدث فعلًا – فنزل قوله تعالى مؤيدا لرأى عمر ومعاتبا للنبي عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧].

* عاتب الله نبيه فى الصحابي عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر وليس من أشراف القوم فاستمهله النبي ﷺ حتى يفرغ من حديثه مع بعض وجهاء المدينة فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾[عبس: ١-٢]، وهو عتاب شديد وبليغ من رب العزة لنبيه.

* كذلك هناك موقف آخر من أعجب المواقف التى يمكن أن نتصور فيها عتاب الله ﷻ لنبيه فى مواجهة كفار قريش وهم يحاربونه فى أحد.

حيث كان النبي ﷺ فى وسط القتال وقد أصيب ونزل دمه الشريف من إصابته فقال: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم».

فإذا بالوحى الشريف ينزل معاتبا النبي ﷺ فى مقالته تلك فقال رب العزة: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨].

فلنا أن نتأمل فى هذه المواقف بالعقل المجرد ونقول..

كيف يتسنى لرجل يبحث عن القيادة الدنيوية وعن هيبته بين أتباعه أن يسمح لنفسه بالإعتراف بالخطأ على هذه الصورة..

وليت أن الإعتراف جاء عرضا أو فى سياق حديثه مع أصحابه بل يأتى التصحيح والعتاب فى قلب آيات الكتاب الكريم حيث سيصير مخلدا متعبدا به إلى يوم القيامة..

ولا شك أن النبي ﷺ لو لم يكن نبيًا ورسولًا من رب العالمين لما وضع نفسه وذاته تحت هذا التعديل والعتاب وبهذه الشدة التى رأيناها في الموقف الأخير بالذات.

فالكفار في حرب ضروس تدور رحاها ضد النبي ﷺ وأصحابه فمن الطبيعي أن تخرج بعض كلمات العتاب من النبي ﷺ بعد إصابته الفادحة فى القتال لا سيما وأن قريشا قد استماتت لإصابته وقتله فى تلك الموقعة..

ورغم هذا..

نزل الوحى الشريف معاتبا ومذكرا للنبي ﷺ أنه ليس من حقه الحكم على هؤلاء الكفار بعدم الفلاح لأن الأمر ليس بيده بل هو بيد الله وحده إن شاء هداهم وإن شاء عذبهم.

مما يجزم بأن النبي ﷺ ما كان لينطق عن الهوى بل هو وحى يوحى فلا يمكن أن يوجد قائد أو مؤسس لدولة يسمح بأن يُقال له مثل هذا لو كان متحدثا من عند نفسه لكن الأمر يتسق تماما مع صحة دعوى النبوة والرسالة.

رابعًا: موقف النبي ﷺ في حادثة الإفك

حادثة الإفك منفردة كانت غرابتها سببا فى حيرة بعض المتفكرين الغربيين وقد لفتت نظر أحد المستشرقين الذين تأملوا في سياق القصة فجزموا بصدق النبوة والرسالة للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وملخص قصة حادثة الإفك - دون الدخول في تفاصيلها - هو أن النبي ﷺ كان يخرج في غزواته ومعه واحدة من نسائه فى كل مرة..

وفى إحدى الغزوات وقع الدور على السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لترحل معه وحدث أن توقفت القافلة ف الطريق فنزلت السيدة عائشة لأمر خاص بها..

ولما كانت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذات وزن خفيف فلم يلحظ قائد الإبل خفة الحمل والهودج الموجود فوق بعيرها فسار بالبعير وهو يظن أنها موجودة بالهودج.

وعندما عادت السيدة عائشة فوجئت برحيل القافلة فانتظرت مكانها ولم تتحرك لعلهم يدركون غيابها فيرسلون فى طلبها من جديد.

وكان هناك صحابي ضمن القافلة تأخر عن مسيرة القافلة فلما وصل لمكانها وجدها تجلس وعرف منها الخبر فحملها على بعيره وسار به حتى أدرك المدينة..

ونظرًا لطبيعة مجتمع المدينة فى ذلك الوقت حيث كان العداء للدولة الإسلامية الناشئة فى عنفوانه من اليهود وأحزابهم ومعهم زمرة المنافقين الذين أظهروا الإسلام خوفا ونفاقا وكتموا الكفر والعداء.

وكان المنافقون يتربصون الدوائر بالمسلمين فى كل أمر يرونه مطعنا فى المسلمين.

فلما وقعت تلك الحادثة وجدها المنافقون فرصة عظيمة للطعن فى عرض النبي ﷺ فقام المنافقون بالترويج للإفك المبين واتهموا السيدة عائشة ـ برأها الله ـ بالفاحشة معتمدين على حساسية المجتمع العربي الفطرية تجاه أى شكوك من هذا النوع..

وانتشرت الأقاويل بدرجة مفزعة وانتشر الأمر انتشارًا عظيمًا بين المسلمين ووقع الصحابة والنبي ﷺ تحت نيران حرب معنوية هائلة قادها عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين.

وكان وقع حادثة الإفك على السيدة عائشة هائلًا لا سيما وأن الحادثة مفتراة من أولها إلى آخرها لكن طبيعة حرب الشائعات لا يمكن مواجهتها بالمنطق.

وانتظرت السيدة عائشة وهى تبتهل إلى الله أن يري النبي ﷺ رؤيا تبرئ ساحتها وتحسم الجدل..

وكذلك وقع النبي ﷺ فى حيرة شديدة وهو يحاول أن يتجمل بالصبر والمشورة مع أصحابه.

ولكن الأمر طال كثيرًا وكادت تحدث بسببه معركة كبري بين الأوس والخزرج بينما كان الإسلام قد وضع أوزار حروب الجاهلية..

واستمرت إرهاصات المعركة المعنوية قرابة أربعين يومًا كاملة..

أربعون يومًا لم يهدأ للمسلمين فيها قرار ولم يُحسم أمر تلك الفتنة العاصفة حتى جاء الوحى أخيرا إلى النبي ﷺ بسورة النور والتى نزلت فيها براءة السيدة عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سماوات وبآيات من الله ﷻ نتلوها إلى يوم القيامة.

وتحقق دعاء السيدة عائشة بأكبر وأعظم مما تمنت فقد كان طموحها أن يري النبي ﷺ رؤيا - ورؤيا الأنبياء وحي - لكن الله

أكرمها بآيات بينات فى سورة كاملة تفضح المنافقين وإرهاصاتهم وتثبت المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١].

والمتأملون فى حادثة الإفك يدركون بالتأمل العقلي سبب اندهاش بعض مفكري ومستشرقي الغرب من عدة وجوه..

* المتأمل فى طبيعة المجتمع العربي عموما يدرك أن أهم ما يميزه هو مسألة الغيرة العنيفة فى أمور العرض والنسب والصهر وأن مدار افتخار المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده هو موضوع الغيرة على العرض وعلى النساء..

فأمر الغيرة لم يكن فقط مطلبًا وتشريعًا دينيا بل هو طبع وطبيعة عربية مميزة وبالغة الحساسية ويعتبر العبث والحديث فيها مثار قتال وصراع لا يهدأ.

* النبي ﷺ بكل قيمته وقامته فى مجتمع المسلمين حيث اجتمع شرف الرسالة مع شرف النسب من غير المتصور أن يتحمل واقعة مفتراة مثل حديث الإفك ويصمت عنها ولا يتدخل فيها بحكم قاطع بالكفر والقتل على كل من شارك أو ساهم فى ترويجها إلا إذا كان أمر النبي ﷺ من عند الله ﷻ وليس من عند نفسه.

فالله ﷻ اختار هذه القضية بالذات كاختبار فولاذى للنبي ﷺ والصحابة وصمد النبي ﷺ وصمد صحابته وانتظروا حكم الله بعد أربعين يوما بالغة القسوة.

ومن المستحيل - عقلًا - أن يقبل النبي ﷺ بالصمت لهذه المدة الطويلة لو لم يكن الوحى الإلهى بالفعل صادقًا لأنه لو كان غير ذلك لقام النبي ﷺ بوأد الفتنة فى مهدها بحكم قطعى صريح.

* طبيعة حادثة الإفك نفسها تحمل دلالة بالغة الخطورة حيث أن الطعن هنا فى زوجة النبي ﷺ نفسه وهى فى نفس الوقت بنت أبي بكر رضي الله عنه وهو ثانى اثنين فى الرسالة الإسلامية كلها والرجل الذى يساوى مقداره مقدار أمة الإسلام أجمع.

لهذا لو جاز للنبي ﷺ أن يصبر على أى ابتلاء طوعا لما كان متصورا -عقلًا- أن يصبر ساعة من نهار على هذه الواقعة التى هددت مجتمع الصحابة والرسالة بأكملها ولهذا فصبره لهذه المدة كلها دليل قطعى على أن أمر الوحى والرسالة ليس من عنده.

* والنقطة الأخيرة..

إن العرب بطبيعتهم الإنتقامية الهائلة فى موضوع الغيرة والشرف لم يكن من عادتهم قط - عند ثبوت الإفتراء فى واقعة مثل هذه - أن يصمتوا عن المتكلمين أو يبادروا بالعفو عنهم..

بل الجزاء المستحق في تلك الحالة فى عرف العرب هو القتل لكل من شارك أو ساهم..

لكننا عندما نتأمل آيات سورة (النور) نجد أن الحكم الإلهى على هؤلاء المشاركين بالفتنة هو حكم بالنفاق والفسق «عدم قبول الشهادة» إلا من تاب منهم.

والنقطة الجديرة بالتأمل حقا..

أن حكم الله استثنى التائبين من أدنى عقاب حيث ثبت فى السيرة أن أحد المشاركين فى الفتنة كان ربيبا متبنى لأبي الصديق وكان يصله بالمال والمعونة وحلف أبو بكر أن يقاطعه - كأقل رد فعل منه - لكن الله ﷻ أنزل فى سورة النور أمره بالعفو قائلًا: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢].

ولنا أن نتخيل كيف أن الله ﷻ عاتب أبا بكر على موقفه وأمره بالعفو والصفح فامتثل أبو بكر رضي الله عنه وعاد إلى التكفل بمئونة ربيبه وكأن شيئا لم يحدث !

إننا لو تأملنا سياق الحادثة بمنطقنا العقلي المجرد وفى زمننا الحالى لأثارت استغرابنا وذهولنا بسبب حجم الصبر والثبات وسعة الخلق والحلم التى امتاز بها الصحابة امتثالا لأمر الله ناهيك عن موقف النبي ﷺ - وهو من هو - من الصبر حتى أتاه أمر الله.

لهذا نقول بأن واقعة الإفك أحد أهم وقائع السيرة النبوية العملية التى تثبت بما لا يدع مجالا للشك صدق الوحى السماوى برسالة الإسلام.

خامسًا: موقف النبي ﷺ يوم صلح الحديبية

هذا الموقف يعتبر في الفكر الإستراتيجى من أغرب المواقف التى يمكن أن يتخذها قائد عسكري في إطار صلح مع عدوه..

وهو موقف - بالقياس العقلي والفكر العسكري المحض - يعتبر موقفا غير موفق على الإطلاق ولا يمكن أن ينتج عنه إلا صالح العدو لا صالح المسلمين..

لكنه بالوحى الكريم انقلبت الأحوال تماما ليصبح صلح الحديبية ضربة قاصمة لمشركى قريش

ولنتأمل الموقف في بداياته..

فالمروى والمتفق عليه في أحداث السيرة النبوية أن النبي ﷺ رأى في منامه أنه يطوف بالبيت ويعتمر ونظرا لأن رؤيا الأنبياء وحى وتكليف فقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالإستعداد والتجهز لزيارة البيت الحرام فى مكة بغرض العُمرة لا بغرض القتال..

وكانت الأجواء العسكرية بين المسلمين وبين قريش في ذلك الوقت ليست أجواء سلام فقد انتهت آخر المعارك الكبري بينهم وهى غزوة «الأحزاب» بفشل مؤلم وذريع لجيش التحالف الذ قادته قريش من غطفان وبعض قبائل العرب فضلا على يهود المدينة لكن الغزو فشل رغم تكامل أسباب النصر لديهم بلا جدال..

وعادت جيوش قريش وحلفائها العرب دون أن يحققوا أدنى هدف من الغزوة وبعدها استدار المسلمون إلى اليهود فأجلوا القبائل

التى خانت عهودها من المدينة واستقرت دولة الإسلام الناشئة فى المدينة دون منازع.

ورغم أن تكليف النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأصحابه بالتجهز للعمرة أى بغرض سلمى تمامًا إلا أنه لم يؤذن قريش بقدومه معتمرًا دون قتال بل سار الجمع الكبير وهم يرتدون ملابس الإحرام ولا يحملون من السلاح شيئا إلا السيوف فى أغمادها حماية لهم من أى غدر متوقع ونزل الخبر على قريش كالصاعقة..

ثم هدأت الخواطر قليلا عندما علم قادة قريش بأن غرض المسلمين هو العمرة والطواف ببيت الله الحرام ولكنهم رغم ذلك اصطفوا في سلاحهم وفرسانهم كى يمنعوا المسلمين من الدخول وذلك لأن قريش خشيت معايرة العرب لهم بأنهم دخلوا مكة عليهم رغمًا عنهم.

ورغم الكبر والصلف والغرور الذى تعامل به قادة قريش إلا أنهم فى أعماقهم أدركوا مدى ضعف موقفهم..

فالحالة التى كانت عليها قريش في ذلك الوقت كانت تنبئ بهزيمة ساحقة لهم إذا واجهوا المسلمين عسكريًا فقد انعزلت قريش بعيدا عن حلفائها عقب فشل غزوة الأحزاب بالإضافة إلى أن كبار مقاتلى قريش وزعمائها قد هلكوا فى الحروب السابقة ولم يتبق منهم أحد إلا أبا سفيان وسهيل بن عمرو.

كما أن تحالفهم مع يهود المدينة انهار وانتهى عهده وانتهى أمر اليهود فى المدينة أصلا وفرغت مكة من معظم أهلها بعد إسلامهم ولهذا كانت الروح المعنوية لقريش فى الحضيض..

وبالتالى لم يكن لقريش أى طاقة بمواجهة عسكرية مع المسلمين وتدخلت قبائل «خزاعة وبكر» للوصول إلى اتفاق سلمى بين المسلمين وبين قريش وانتهزتها قريش فرصة لتفادى القتال الذى كانوا يتخوفون منه أصلًا..

وفى الجهة المقابلة كان النبي ﷺ معلنا لأصحابه ولقبائل العرب أنه يأت لقتال وأنه غرضه سلمى تماما حتى مع الضعف والخور الذى ينهك عدوه.

لكن قريش عندما أدركت نية النبي ﷺ فى السلم لا الحرب أرادت حصد أكبر قدر من المكاسب بحيث تتفادى السقوط الحتمى بالقتال وفى نفس الوقت تنتهز الفرصة لعقد اتفاقية هدنة طويلة المدى تتجنب معها أى حرب قادمة..

لهذا عندما ذهب عثمان بن عفان رضي الله عنه لقريش كى يتفاوض وانتشرت شائعة مقتله على أيدى المشركين سارعت قريش لإرسال عثمان مجددا للمسلمين بعد أن انخلعت قلوبهم من الخبر الذى تناهى لمسامعهم أن النبي ﷺ نوى القتال وبايع أصحابه على ذلك عند شجرة الحديبية فى البيعة المعروفة باسم «بيعة الرضوان»[1].

(١) لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة كتاب «مغازى ابن عقبة» وهو من أصدق كتب السيرة النبوية لصاحبه المؤرخ موسي بن عقبة.

وبعد انتهاء الشائعة اتفقت قريش على إرسال خطيبها المفوه وسفيرها «سهيل بن عمرو»[1].

وكان سهيل بن عمرو معروفا بدهائه وخطابته فانعقد صلح الحديبية بين النبي ﷺ من جهة وقريش من جهة ويمثلها سهيل بن عمرو.

وهنا يأتى الموقف الإستراتيجى المستغرب الذى تحدثنا عنه..

لأن بنود صلح الحديبية المتفق عليها لم تكن من التصرفات الإجتهادية للنبي ﷺ والتى كان يجوز له فيها مشاورة أصحابه بل كانت وحيا من الله ﷻ..

---

(١) سهيل بن عمرو رضي الله عنه صحابي من كبار مسلمى الفتح وخطيب قريش المعروف وقع أسيرا في معركة بدر وأراد عمر بن الخطاب خلع أسنانه الأمامية حتى يمنعه الخطابة ضد المسلمين لكن النبي ﷺ نهاه وأبلغه بأن سهيلا سيقف خطيبا في موقف يسره وقد تحققت بشارة النبي ﷺ وكان سهيل بن عمرو هو الذى أوقف طوفان الردة فى مكة عقب وفاة النبي ﷺ وقد أسلم ولداه عبد الله وأبو جندل قبله وكانا من خيرة الصحابة رضي الله عنهم.

لهذا انفرد النبي ﷺ بعقد الصلح والموافقة على بنوده التى اشترطها سهيل بن عمرو وثار لأجلها الصحابة جميعًا - عدا أبا بكر رضي الله عنه- إذ أن بنود الصلح كلها دون استثناء كانت بنودًا مستفزة لأقصى مدى ولا تتناسب مع الضعف الرهيب الذى تعانيه قريش والقوة التى يتمتع بها المسلمون..

هذا طبعًا بالقياس العقلي المحض لأجل ذلك اعترض الصحابة وأولهم عمر بن الخطاب على تلك البنود التى تعبر عن غرور قريش الكاسح واستغلالها لنية النبي ﷺ فى الصلح.

لكن اعتراض الصحابة تلاشي تماما عندما أبلغهم النبي ﷺ بأن الصلح ليس اجتهادًا منه وأن ما يرونه من البنود المنعقدة عبارة عن شر مستطير هو خير كبير قادم لا تستوعبه عقولهم..

ففي البداية استفز سهيل بن عمرو المسلمين جميعا عند كتابة مقدمة الصلح واشترط محو صفة النبوة عن سيدنا محمد

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وثار الصحابة ولكن النبي ﷺ هدأ من خواطرهم ونفذ لسهيل مطلبه.

ثم كانت البنود التى اشترطت على المسلمين العودة من حيث جاءوا دون دخول مكة فى عامهم هذا وأن يؤدوا مناسك العمرة فى العام القادم..

ثم اشترطت قريش وضع الحرب - أى إيقاف الحرب - عشر سنوات تتمتع فيها قوافل قريش التجارية المارة بالمدينة بالأمان التام وكانت هذه نقطة ضعف لقريش عانت منها كثيرا ولو أنهم تفادوا هذا وأمنت تجارتهم وزادت لكان هذا زيادة لهم فى القوة على المسلمين !

ثم جاء البند الأخير الذى أثار المسلمين جميعا بأنه إذا جاء للمسلمين أحدٌ من قريش مسلما فارا من أهله أو مواليه فإن على المسلمين أن يردوه إلى قريش مرة أخرى ولا يقبلوه بينهم.

وكان بقريش - فى تلك الفترة - عدد كبير من المسلمين المستضعفين تمكنت قريش من حبسهم وسجنهم ومنعهم من الهجرة للنبي عليه السلام.

وبمقتضي تلك المعاهدة لن يتمكن هؤلاء المسلمون من الهجرة أو الفرار إلى المدينة وسيمتد عناؤهم دون أمل لأنه قبل عقد المعاهدة كان هناك من المستضعفين من ينجح فى الهرب من محبسه ويفر إلى المدينة فينضم للمسلمين.

وزيادة فى النكاية اشترط سهيل بن عمرو أن من جاء من المدينة فارا من المسلمين فإن قريش ليست ملزمة بإعادته إلى المدينة بمبدأ المعاملة بالمثل[1].

وهكذا وبالقياس العقلي المحض..

نجد أن سهيل بن عمرو قد نجح نجاحا مبهرا فى مهمته وأن قريش بموجب شروط هذه المعاهدة ستتمكن من استرداد قوتها فى

(١) مغازى ابن عقبة، مصدر سابق.

بضع سنوات عندما تنتعش تجارتها التى كانت مهددة دوما بالمسلمين وأيضا ستسترد عافيتها وتجدد التحالفات مع قبائل العرب خلال عشر سنوات قادمة دون خشية أو خوف من حرب أخرى تستنزف قوتها..

وعلى الناحية الأخرى..

وبالقياس العقلي المحض أيضًا نجد أن المسلمين خسروا بهذه المعادة كل مكاسب انتصاراتهم السابقة فضلًا على خسارتهم لنقاط القوة التى كانت تؤلم قريش وتتمثل في تهديد المسلمين لتجارة قريش إلى الشام كحرب إقتصادية موجعة.

فضلًا على الخسارة الأكبر وهى عدم استغلال الضعف الرهيب الذى تعانيه قريش والإسراع باتخاذ قرار الحرب وفتح مكة -التى كانت معقل المشركين - وإنهاء تلك الحرب الضروس بشكل

نهائي أى أنه بالتعبير السياسي فإن علم الإستراتيجية يقول أن السياسة الإسلامية خذلت السلاح[1].

لكن الذى يثبت صدق النبوة والوحى إثباتا لا مراء فيه هو ما كشفته الأحداث المستقبلية بعد هذه المعاهدة بأقل من عامين فقط !

فقد صدق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما قال لعمر بن الخطاب «يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعني أبدًا».

وصدقت كلمة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قال لعمر أيضًا «يا عمر نلزم غرس رسول الله ﷺ»[2].

---

(١) تعبير استراتيجى معروف يطلقه الخبراء على أى معاهدة سياسية تعقب حربا وتنتهى المفاوضات فيها إلى مكاسب لا تتناسب مع الإنتصارات العسكرية وقد استخدم محمد حسنين هيكل هذا التعبير ليصف معاهدة السلام التى تمت بين مصر وإسرائيل ووصفها بأنها معاهدة أحبطت انتصار أكتوبر ولم تتناسب مع النتائج العسكرية.

(٢) مغازى ابن عقبة، مصدر سابق.

فالشاهد من هذه الروايات أن عمر بن الخطاب بعبقريته النابغة التى أشاد بها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يري أن اتفاق صلح الحديبية فيه ضياع وتضييع لجهود المسلمين وتقوية لشوكة المشركين وأنه لا يوجد أدنى دافع منطقي أو سياسي للقبول بشرط الإذعان تلك.

لكن النبي عليه السلام وصاحبه أبا بكر كانا يلتزمان حرفيا بالوحى حتى لو لم تكن الأمور ذات وضوح لهما فى حينه..

وما حدث بعد ذلك لا يمكن أن نعزوه للعبقرية العسكرية ولا السياسية ولا يكن أحد يستطيع التنبؤ أبدا بمسار الأحداث التى قلبت بنود المعاهدة على رءوس المشركين بشكل درامى لا يمكن أبدًا أن يكون إلا وحيًا وإرادة إلهية محضة تثبت صدق الرسالة والنبوة.

فتلك البنود والشروط المجحفة التى رآها المسلمون والمشركون - على حد سواء - أنها شروط فى صالح قريش انقلبت

هى ذاتها لتصبح بنودا تسببت في ضياع قريش نهائيا وفتح مكة بعد عامين فقط من عقد هذا الصلح.

والإعجاز الإلهى البارز هنا هو أن الله ﷻ قلب شروط قريش التى اشترطتها بنفسها ليجعلها سببا رئيسيا فى هزيمتهم الساحقة..

فالأمر هنا إعجاز إلهى دون تدخل بشري لا يستطيعه إلا رب السماوات والأرض ويشابه تماما ما حدث مع فرعون موسي الذى ظن بنفسه أنه يستطيع تغيير القدر الإلهى بزوال حكمه على يد موسي عليه السلام عن طريق قتل أى مولود ذكر يولد لبنى إسرائيل..

فكان الرد الإلهى درسا بليغا كى يستقيم على قدر الله فيشاء الله أن يولد موسي عليه السلام فى العام الذى يستهدف فيه فرعون أبناء بنى إسرائيل ومع ذلك ينجو من القتل.

ليس هذا فقط بل يتربي موسي نفسه عليه السلام فى قلب قصر فرعون دون أن يدرك وحتى بعد أن أدرك فرعون حقيقة موسي عليه السلام وأخيه هارون وجاءاه بالرسالة الإلهية وانتصرا فى موقعة السحرة.

يأمر فرعون بقتل السحرة لكن لا يستطيع أن يقتل موسي نفسه؟!

فلنا أن نتخيل الإعجاز والتأديب الإلهى الذى لا يمكن تفسيره بمنطق بشري قط..

ففي البداية يعجز فرعون عن قتل موسي طفلًا ثم يربيه في قصره ثم بعد ذلك يقتل المؤمنين بموسي عليه السلام ويترك موسي نفسه رغم يقينه بزوال حكمه على يديه.

والسؤال العقلي هنا لماذا لم يستطع فرعون قتل موسي ؟!

وهو نفس السؤال العقلي الذى يطرح نفسه في بنود صلح الحديبية كيف تنقلب الشروط على أصحابها بعد أقل من عامين ؟!

فالذى حدث بعد ذلك أن قريشا أطلقت أبناءها الذين أسلموا اعتمادا منهم على سريان شروط الصلح وأن المسلمين لن يستطيعوا قبول أى مسلم يفر إليهم.

وهو ما حدث فعلا فقد فر الصحابي الجليل «أبو بصير» إلى النبي ﷺ لكن النبي ﷺ التزم بالمعاهدة ورد أبا بصير.

فحدث أن فر أبو بصير مجددا لكنه لم يذهب للمدينة بل فر إلى أحد شعاب الصحراء القريبة من طريق قوافل قريش وعسكر هناك وأرسل يطلب كل من أسلم في قريش ولم يستطع الذهاب للمدينة فتكونت لأبي بصير كتيبة عسكرية مسلحة فيهم خيرة أبناء قريش مثل أبو جندبل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد شقيق خالد بن الوليد وسلمة بن هشام وأخاه وهما من أعمام عكرمة بن هشام.

وشنت هذه الكتيبة حرب عصابات موجعة على قوافل قريش بحيث بلغت خسائر قريش حدًا مهولًا دفعهم إلى محاولة ملاحقة هذه الكتيبة لكنهم عجزوا عن تحديد موقعها.

فما كان من قريش إلا أن رفعت راية التسليم وأرسلت للنبي ﷺ ترجوه أن يبعث لأبي بصير وكتيبته ويضمهم إليه في المدينة

ويدخلهم فى الصلح وأعلنت قريش أنها تتنازل عن شرطها السابق الذى تصورته نقطة لها فكان وبالًا عليها !

ثم بعد أقل من عام على هذه الأحداث اعتدت قبيلة بكر حليفة قريش في الصلح على قبيلة خزاعة حليفة المسلمين.

ووفقا لشروط صلح الحديبية نفسها فإن هذا الإعتداء العسكري الغاشم - الذى لم يكن له مبرر أصلًا - يعتبر عدوانا صارخا للمعاهدة يحق معه للمسلمين أن ينقضوا المعاهدة ويجددوا الحرب مع قريش.

وبالفعل..

تجهز جيش المسلمين بعشرة آلاف مقاتل تقريبا بقيادة النبي ﷺ وكبار صحابته وفيهم يؤمئذ خالد بن الوليد - الذى أسلم مع عمرو العاص - وفقدت بهما قريش كبار فرسانها

ولم تجد قريش بدا من الإستسلام دون قيد أو شرط ليتم فتح مكة دون قتال..

وهكذا كانت نفس شروط قريش - التى رآها الجميع نقاط تقوية لقريش - هى بذاتها نقاط الضعف التى أنهت سطوة ودولة المشركين إلى الأبد.

سادسًا: مراسلة النبي ﷺ لملوك الأرض في زمانه

قام النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بإرسال خطابات الدعوة للإسلام إلى أكبر ملوك وعتاة الأرض في زمانه وهم كسري ملك الفرس وهرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر والمنذر بن ساوى ملك البحرين والنجاشي ملك الحبشة.

ولاحظوا معى أن هؤلاء في ذلك الزمن كانوا فطاحل ملوك الأرض المحيطين بالجزيرة العربية إحاطة السوار المعصم وكل منهم تحت يده إمبراطورية هائلة وجيوش لا حصر لها.

فكسري فارس كان يملك العراق وآسيا من خلفها تحت يده وإمبراطور الروم كان يملك الشام كلها بالإضافة لأوربا والمقوقس

يملك مصر والشمال الإفريقي والمنذر بن ساوى من أقوى ملوك الجزيرة.

ونستطيع استثناء النجاشي - رغم قوته - لأن النجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان هو أجار وحمى المهاجرين من المسلمين من بداية الدعوة وآمن بصدق الرسالة وأسلم فعلا وصار من التابعين[1] وقد صلي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صلاة الغائب عند وفاته لهذا نستثنى النجاشي ونركز على الملوك الباقين لأنهم لم يؤمنوا بالرسالة..

ولكى ندرك مدى الإعجاز الإلهى فى موقف إرسال رسائل الدعوة للإسلام إلى هؤلاء الملوك ينبغي لنا أن نتعرف عن الظرف التاريخى الذى كانت عليه ممالك الأرض يومئذ.

---

(١) الصحابي هو من آمن بالنبي عليه السلام ورآه والتابعي هو من آمن بالنبي عليه السلام ولم يره ولكنه رأى أحد الصحابة لذلك يعتبر النجاشي تابعيا رغم أنه كان فى زمن النبي عليه السلام لأنه لم يره ورأى عددًا كبيرًا من أصحاب النبي عليه السلام مثل عثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعا.

فالأرض فى تلك الفترة وعلى امتداد ألف عام سابقة على بعثة النبي ﷺ كانت الدول والإمبراطوريات فى العالم عبارة عن دول دينية وكهنوتية كاملة..

وذلك بالمعنى الحرفي لمفهوم «الدولة الثيوقراطية»(١) فى العلوم السياسية..

(١) الدولة الثيوقراطية الدينية مفهوم علمى لا علاقة له بما يروج له العلمانيون ويتهمون به دولة الإسلام فالدولة الدينية هى الدولة الكهنوتية التى يعتبر أساس مشروعية الحكم فيها لرجال الدين الذين يملكون حق التشريع والسلطة وهم المتحدثون الرسميون باسم الإله ويملكون صكوك الجنة والنار فمن يختارهم= =رجال الدين هم المؤمنون ومن يغضبون عليهم هم الكفار مثل دولة المجوسية فى فارس دولة الكنيسة فى عصور الظلام قبل قيام الثورة الفرنسية.

وهذا مخالف تماما لدولة الخلافة الإسلامية التى لا تعرف مفهوم «رجل الدين» بل تعرف مفهوم «علماء الدين» وهؤلاء لا يملكون حق التشريع بل يملكون بيان حكم الشرع وفق الأدلة وعند اختلافهم يختار الناس بين الفتاوى والأدلة دون إلتزام سلطوى من أحد العلماء أو مذهب معين كما أن علماء الدين لا يملكون قطعا الحكم على تدين الأفراد ومصيرهم فى الآخرة فهذا فى علم الله وحده.

فقد كانت الدولة المجوسية فى فارس تقوم شرعية الحكم فيها لآل ساسان وهم بيت الحكم وبيت الدين أيضا حيث كان مؤسس دولتهم هو ساسان كاهن معبد النار وأبناؤه هم ملوك وقواد الدولة الساسانية ومن نسلهم وحدهم جاء الحكام

كذلك كان الحال عند الرومان حيث كانت الكنيسة هى مصدر التشريع ومشروعية الحكم ويملك الكهنة سلطة التشريع فيها والملك فى بيت القيصر

ومعنى هذا..

أن الظرف التاريخى فى تلك الفترة لم يكن يعترف أو يعرف بمفهوم دولة «المواطنة» بل إن الوطنية كانت هى الدين الذى تعتمده الدولة وأى مخالفة لهذا الدين من مواطنين داخل حدود الدولة كان يعنى اعتبار هؤلاء المواطنين مجرد دخلاء وخدم لمواطنى الدولة..

وهو ما كان يحدث بالفعل مع «عرب فارس» و«عرب الروم» من الغساسنة والمناذرة.

وهذا يعنى بالتبعية أن إرسال رسائل دعوة لدين جديد لهذه الدول معناه إعلان حرب بالمعنى والمفهوم السياسي السائد فى ذلك الزمان.

وهذا الأمر يشبه الآن أن تقوم دولة ما بمراسلة دولة أخرى تطلب منها الإعتراف بسيادة الدولة الأولى على الثانية ونزع مشروعية الحكم فيها لتصبح الدولة الثانية مجرد تابع لحاكم الدولة الأولى فهل يستطيع القارئ الكريم أن يتخيل حدوث هذا فى عالم اليوم ؟!

وهل يستطيع تخيل العواقب المترتبة على مثل هذا التصرف؟!

وبالتالى..

فإن مراسلة النبي عليه السلام لملوك الأرض بهذه الرسالة معناه كما قلنا إعلان حرب على قادة تلك الدول لمجرد دعوتهم إلى دين جديد لا يعرفونه..

ثم -وهو الأنكى- أن الرسائل آتية من العرب والعرب في تلك الفترة كانوا مجرد قبائل متشرذمة خارج إطار الحضارة والتاريخ

ولا يملكون مثقال ذرة من قوة بل على العكس يخضع معظمهم لمشيئة الدول الكبري المحيطة بهم فى اليمن والشام والعراق.

ليس هذا فقط..

بل كان عرب الجزيرة لا يشعرون فقط بالرعب المقيم من قوة فارس والروم بل كانت رعبهم من إخوانهم العرب حلفاء فارس والروم.

بمعنى أن عرب قبائل الجزيرة العربية كانت تخشي من مجرد سطوة «الغساسنة» و«المناذرة» حلفاء فارس والروم على حدود العراق والشام فكيف بدولة الروم وفارس نفسها ؟!

كما لا ننسي أن قبيلة قريش في زمن أجداد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تعرضت لتجربة توضح مدى سطوة الروم والفرس في زمانهم..

وذلك أن مكة كانت لا تخضع لرياسة الملك من شخص بعينه بل كان كبيرها هاشم بن عبد مناف ومن بعده عبد المطلب ولكن

رياسة بنى هاشم كانت رياسة شرفية لا تمنع خضوع مكة لسلطان جماعي تمثله بطون قريش كلها وهم..

«بنو هاشم»، و«بنو عبد شمس» و«بنو زهرة» و«بنو سهم» و«بنو المطلب»، و«بنو مخزوم» و«بنو نوفل» و«بنو عدى» و«بنو كنانة» و«بنو أسد» و«بنو تَيْم» و«بنو جمح» و«بنو عبد الدار» و«بنو عامر بن لؤى» و«بنو محارب بن فهر».

فأراد أحد وجهائها أن يجعلها مملكة ويجبر قريش على تنصيبه ملكًا وهو عثمان بن الحويرث فلجأ فى ذلك إلى قيصر الروم وتمكن من مقابلته وأخذ منه كتابا مختوما بدعوة قريش للدخول في النصرانية وتنصيبه ملكا عليهم..

وهابت قريش من كتاب قيصر الروم وكادت كلمة أشرافها أن تتفق على الخضوع لمشيئة قيصر خوفا من العواقب وذلك رغم مكانة قريش ومكة بين العرب واستعدادهم للدفاع عنها إلا أن هذا الإستعداد من العرب كان مستثنى بإلا وإلا هنا يمثلها الفرس والروم

ولكن قبل أن تقوم قريش بتنصيب عثمان بن الحويرث ملكا انتفض أحد أشرافها وهو الأسود بن المطلب رافضا الأمر وقال: «إن مكة حي لقاح لا تدين لملك».

يعنى أنها متروكة لا يملكها شخص بعينه فتراجع أشراف مكة فقام عثمان بن الحويرث بالنهوض مجددا لقيصر كى يرسل معه جيشا يجبرهم على ذلك لكنه مات فى الطريق وانتهت تجربته[1].

أيضًا عندما أراد إبرهة الحبشي هدم الكعبة فى عام الفيل وكان إبرهة ملكًا على اليمن ورغم قوته إلا أنه لم يكن يكافئ قوة الروم والفرس أعظم قوتين على الأرض.

ورغم هذا..

ورغم جلالة مكان الكعبة وقريش عند العرب إلا أنهم لم يستطيعوا الاجتماع على حرب جيش إبرهة بسبب أن دولة إبرهة

(١) لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، للمؤرخ جواد علي.

كانت دولة نظامية تمتلك جيشا مدربًا متطورًا ومتمرسا على القتال النظامى الذى يختلف تمام الاختلاف عن حروب قبائل العرب التى تشبه قتال الشوارع.

ولهذا لم يتصدوا لإبرهة حتى كان من أمره ما كان وهلك بالطير الأبابيل.

والتجربة الوحيدة تقريبا التى اتحد فيها العرب على أحد هاتين الدولتين كانت الموقعة الشهيرة فى تاريخ العرب قبل الإسلام وهى موقعة «ذى قار» والتى اتحدت فيها الغالبية العظمى من قبائل العرب تحت قيادة «بنى شيبان» لمحاربة الجيش الفارسي انتقامًا من الفرس على غدرهم بالملك العربي النعمان بن المنذر الذى غدر به كسري بعد أن قام بتأمينه واعتبرها العرب إهانة بالغة لكرامتهم فانتفضت حميتهم وتجمع غضبهم من جيش فارس فى غضبة متحدة وتجهزوا للفناء لكنهم انتصروا فى تلك الموقعة..

وانتصارهم هنا كان الإستثناء الذى يؤكد القاعدة فقد تجمعت كافة الظروف من ارتفاع الروح المعنوية فى العرب وغضبهم الشديد لكرامتهم واستعدادهم للموت مع استهانة الفرس بهم مما أدى فى النهاية لهزيمة الجيش الفارسي المحدود الذى واجهه العرب.

لكن كما قلنا كانت حادثة استثنائية انتقم فيها العرب لشرفهم ولم تتكرر على نطاق واسع..

وهذا أمر طبيعى..

فالعرب في تجارتهم لليمن والشام والعراق كانوا يرون عواصم بلاد فارس والروم وحضارتهم الطاغية وتقدمهم العلمى واستعراضات جيوشهم الهائلة التى تنخلع لها القلوب..

وكان خوفهم هذا مضرب الأمثال حيث كان الرجل منهم إذا بشره أحد بحدث جسيم قال له: «ماذا أصابك هل هجمت غسان ؟!»

فى إشارة إلى أن أشد مفاجأة يمكن أن يتعرض لها العرب هى مهاجمة حلفاء الروم لهم..

الشاهد من هذا..

أنه رغم العنفوان الرهيب الذى تمثله الطبيعة العربية فى الجاهلية وشدة بأسهم إلا أنهم كانوا يدركون مدى قوة الدول العظمى فى عالمهم للدرجة التى كانت تجعلهم يخشون سطوة حلفاء الروم والفرس فما بالنا بالروم والفرس أنفسهم !!

فى إطار الشرح السابق لا يمكننا أبدا تفسير موقف النبي ﷺ تفسيرا بشريا أبدا وذلك لسببين هامين..

الأول: هو التوقيت الغريب لخطابات الدعوة فقد راسل النبي ﷺ ملوك الأرض بعد «صلح الحديبية» ورغم أن صلح الحديبية كانت اتفاقية هدنة من القتال مع قريش إلا أن هذا الصلح لم يعن أبدا امتداد نفوذ دولة الإسلام على الجزيرة العربية كلها ولا حتى على بعضها.

فالمنطق السياسي يقول بأن خطوة إرسال خطابات الدعوة لملوك الأرض لا ينبغي أبدا أن تتم إلا عندما تتوحد الجزيرة العربية كاملة تحت راية الدولة الإسلامية فى المدينة..

عندها فقط يجوز اتخاذ هذه الخطوة بالغة الجرأة..

لكن هذا لم يحدث

لأن قريش أعظم أعداء الدولة الناشئة لا زالت باقية بالإضافة إلى أن عدد القبائل التى أعلنت إسلامها أقل كثيرًا جدًا من القبائل التى لا زالت على الشرك وهذه القبائل كان فيها قوة وعنفوان هائل ومتوقع حدوث اعتداء منهم على دولة المسلمين لا سيما من «بنى حنيفة» الذين ظهر فيهم مسيلمة الكذاب وحشدهم تحت رايته لمنافسة المسلمين.

وبالتالى..

فإن توقيت الرسائل في ذلك الوقت - وفقا للمقياس العقلي - يعتبر ايذانا بإنتهاء الدولة الإسلامية تماما لأن قوة فارس الروم

واليمن والبحرين ومصر كان مضافا إليها قوة قبائل العرب المعادية أصلا لدولة الإسلام ولو اكتفي الروم والفرس بدعم القبائل وتشكيل تحالف ضد المسلمين لجمعوا جيشا جرارا يقضي على المسلمين تماما..

وكانت هذه الحقيقة لامعة فى ذهن قريش عندما بلغتهم أمر رسائل الدعوة التى أرسلها النبي ﷺ ففرحت قريش بهذا وقالوا «لقد كفيتم الرجل».

أى أنهم أيقنوا بهذه الخطوة هى النهاية المؤكدة لعدوهم..

ثانيًا: المنطق العقلي والسياسي أيضا يقول أنه إن كان ولابد أن يقوم النبي ﷺ بهذه الخطوة فلا يمكن القبول أبدا - بالمنطق العقلي - بتعميم إرسال الرسائل إلى كافة ملوك الأرض وقتها !

فمبادئ العلوم السياسية تقول أن إرسال الخطابات يجب أن يستغل المبدأ السياسي الشهير «فرق تسد» عن طريق مراسلة أحد

القوتين العظيمين وترك الأخرى وذلك حتى يمكن الإستفادة من عداء كل منهما تجاه الأخرى.

أما إرسال الرسائل بدين جديد ودعوة جديدة لكافة الأطراف فهذا معناه ببساطة دعوة إلى اتحاد كافة الدول على مصدر هذه الخطابات مما يعنى الهلاك المؤكد.

وهكذا نجزم بأن هذا التصرف لا يمكن تفسيره في ضوء المنطق العقلي أبدًا خاصة عندما نعلم سيرة الحوادث بعد هذه الخطوة..

والتفسير الوحيد الذى يستقيم مع العقل الطبيعي المحايد هو التكليف الإلهى الذى أمر به رب العزة نبيه عليه السلام وضمن له نجاح تلك الخطوة بالرغم من أن كافة الحسابات البشرية تؤكد فشلها..

فالرسالة الأولى التى بلغت كسري فارس وكانت مكتوبة ومترجمة وتبدأ باسم النبي عليه السلام قبل ذكر اسم كسري وكان هذا فى العرف الدبلوماسي وقتها إهانة كبيرة لكسري.

واستشاط كسري غضبًا بسبب صيغة الرسالة كما كان غضبه العارم لسبب جذرى وهو أن الفرس يحتقرون الجنس العربي احتقارًا رهيبًا لهذا رأى كسري أن الرسالة إهانة غير متوقعة وجرأة غير مسبوقة من العرب.

فمزق كتاب النبي ﷺ وأمر بقتل حامل الرسالة عبد الله بن حذافة السهمى وأرسل إلى واليه على اليمن «باذان» - حيث كانت اليمن تخضع للفرس وقتها - وأمره بإرسال جنديين لكى يأتوا له بالنبي ﷺ أسيرا بين يديه !!

فلما بلغ النبأ النبي ﷺ دعا عليه بقوله: «اللهم مزق ملكه».

وحق لنا أن نتوقف هنا عند هذه الدعوة المستجابة..

لأن الأمر لا يمكن قبوله على أنه مصادفة..

فقد قام «باذان» والى اليمن الفارسي بتنفيذ أمر كسري فعلًا وأرسل رجلين قويين إلى المدينة ولكن فى نفس الوقت قامت حركة

إنقلاب في فارس يقودها شيرويه ابن كسري نفسه والذى قتل أباه ونصب نفسه ملكا على فارس مكانه.

ولم تكن الأنباء قد بلغت الجزيرة العربية بعد عندما وصل الجنديان من اليمن إلى النبي عليه السلام وهما يتخيلان أنهما بصدد مهمة سهلة..

فقابلا النبي عليه السلام وأبلغاه بأمر ربهما كسري ـ فهكذا كان يطلقان عليه جريا على عادة الفرس في تأليه ملوكهم ـ ففاجأهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله:

«قولا لباذان أن ربي قد قتل ربه الليلة وقولا له أنه إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسري وينتهى إلى ما انتهى إليه الخف والحافر وأنه إن أسلم واتبعنى أعطيته ما تحت يده من الملك وعلى قومه».

فخرجا من عند النبي عليه السلام ونزلا عند باذان وأخبره بما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم تمض الليلة حتى جاء المرسوم الملكى

الفارسي من شيرويه ملك فارس الجديد بمقتل كسري وتنصيبه ملكا فى نفس الليلة التى حددها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فكانت هذه الواقعة سببا فى إسلام باذان نفسه ثم إسلام اليمن بأكملها بعد ذلك وخروجها من سلطان الفرس[1].

والواقعة كما نرى واقعة تاريخية معروفة ومشهورة سواء في رسالة النبي عليه السلام لكسري أو فى مقتل كسري وكذلك فى إسلام والى اليمن وخروجها من يد الفرس زمن النبي عليه السلام.

والسؤال الآن..

بأى منطق يمكن أن ننظر لترتيب الوقائع والأحداث بهذه الصورة الدرامية التى يعجز عن تصورها روائي فى أدب الخيال والفانتازيا..

(١) رسالة النبي عليه السلام لكسري «دروس وعبر»، تحقيق مراد بارخيصة، شبكة الألوكة الإسلامية.

فمن المعروف قطعا أن الفرس أشد بطشا وتوحشا من الروم وهم يماثلون المغول في همجيتهم وقوتهم فكيف يمكن أن تسير الأحداث بهذا الترتيب لدقيق لصالح المسلمين على طول الخط ولا تقتصر النتيجة فقط على نجاة المسلمين من بطش كسري.

بل النتيجة الأكثر إعجازا هى قبول باذان والى كسري بالإسلام وخروجه عن طاعة الفرس وإسلام ولاية اليمن وتبعيتها لدولة المدينة الناشئة دون أن يتكلف المسلمون عناء من أى نوع ؟!

بالطبع لا يمكن قبول تراتبية الأحداث بهذا النجاح الساحق دون وضع العامل الإلهى فى الإعتبار لأن أقصي درجات الطموح والتوقع البشري لا يمكنها أن تتعدى توقع نجاة النبي ﷺ ودولته من بطش فارس وهو نجاح مذهل..

أما أن ينتهى كسري نفسه على يد ولده وتخرج اليمن - التى حملت مهمة اغتيال النبي ﷺ - من ملك فارس لدولة الإسلام فهذا ما يجوز عقلا أبدًا.

ونأتى لرسالة النبي ﷺ إلى قيصر الروم والمقوقس حاكم مصر..

وكما قلنا أن توحش وهمجية الفرس يتفوق على توحش الروم إلا أن هذا لا يعنى أن الروم ليست بهم عصبية الدين بالطبع.

بل عصبية الدين متجذرة فيهم لأقصي مدى ممكن والفارق بينهم وبين الفرس في درجة التعصب لا أكثر.

كذلك نظرة الروم للعرب تماثل مثيلتها عند الفرس فكانوا يرون العرب مجرد قبائل همجية لا علاقة لها بالحضارة أو المدنية..

والروم في تعصبهم الدينى كانوا يتعاملون بشراسة مع المخالفين والمناوئين لهم حتى لو كانوا من نفس دينهم.

فالإمبراطورية الرومانية اضطهدت المسيحيين فى أوربا اضطهادًا كاسرا بالذات فى عهد «نيرون» و«دقلديانوس»..

لكن عندما جاء الإمبراطور الرومانى «قسطنطين» توقف عن اضطهاد المسيحيين وآمن بالمسيحية ونظرا لأن الظرف التاريخى

- كما سبق الشرح - كان يري شرعية الدولة مبنية على الأساس الدينى لا أساس المواطنة والجنسية.

فقد أصدر قسطنطين أوامره بإنشاء مجمع للقساوسة يناقشون فيه العقيدة المسيحية التى كانت تتفرق في ذلك الوقت بين عدة إتجاهات عقائدية مختلفة اختلافات كبيرة فى التفاصيل رغم كونهم جميعا تحت راية الدين المسيحى..

وبالفعل انعقد هذا المجمع المعروف باسم «مجمع نيقية الأول» فى عام ٣١٥ ميلادية..

وعليه..

تم اعتبار الديانة المسيحية ديانة الإمبراطورية الرسمية لكن فى ظل القرارات التى تم اتخاذها فى مجمع نيقية الأول وبالتالى أصبح أى مسيحي يعتقد بعقيدة مخالفة للعقيدة المعتمدة للدولة مهرطقًا وتهمة الهرطقة فى ذلك الزمان تعادل تهمة الخيانة العظمى بالمفهوم

الحديث حيث كان أى مخالف للعقيدة المسيحية المتفق عليها يعتبر مهرطقا خائنا ويعانى أشد أنواع التنكيل

وعندما احتل الرومان مصر..

كانت الكنيسة المصرية فى الإسكندرية هى الأب الروحى والمرجع الدينى الأعلى للمسيحيين فى مصر وما حولها أ لكن معتقدات الكنيسة المصرية كانت تتصادم تماما مع معتقدات الكنيسة الغربية فى روما.

وبناء عليه..

تعرض قساوسة ورهبان المسيحيين فى مصر وعوام المسيحية لأشد أنواع البطش والتنكيل قرابة ألف عام تقريبًا واضطر رهبان الكنيسة المصرية للفرار بدينهم من المدن والقري إلى الصحراء حيث أسسوا فى سيناء والصحراء الغربية وغيرها كنائس هائلة المساحة ليبتعدوا بمعتقداتهم عن اضطهاد الرومان ولم ينته هذا الاضطهاد إلا مع الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص في زمن

الفارق عمر بن الخطاب وعندها امتلك المسيحيون المصريون حرية ممارسة شعائرهم وهو ما شهد به كبار مؤرخى الكنيسة المعاصرة القدامى والمعاصرين[1].

الشاهد من هذا أن الرومان كانوا يمتلكون التعصب الأعمى – ليس لدينهم فحسب – بل لعقيدة الكنيسة الغربية التى تمثلها روما.

بالإضافة إلى ذلك..

كانت الإمبراطورية الرومانية ودولة المقوقس في مصر فى أوج قوتها.. خاصة بعد إنتصارهم على مملكة الفرس في آخر معاركهم قبل سنوات قليلة

وبالتالى..

عندما تأتى رسالة النبي ﷺ إلى قيصر روما ً وإلى مقوقس مصر ً فالمتوقع أن يكون الرد مطابقا للرد الفارسي بل أقوى

(١) يرجى مراجعة كتاب «انتشار الإسلام بالسيف بين الحقيقة والإفتراء» للكاتب القبطى المصري المعروف د. نبيل لوقا بباوى.

نظرًا لأن الروم أقرب للجزيرة من الفرس ودولتهم قوية ومستقرة ومع امتلاكهم التعصب الأعمى لدينهم وعقيدتهم فمن غير المتصور أن يكون ردهم على النبي ﷺ ردًا سلميًا!

لكن الثابت تاريخيًا أن قيصر الروم توقف طويلًا أمام رسالة النبي ﷺ وأرسل في طلب وفد من قريش علم بوجودهم فى الشام للتجارة كعادتهم وقابله أبو سفيان بن حرب - قبل إسلامه - وتحاور معه القيصر محاورة طويلة وشهيرة..

ورد على النبي ﷺ ردًا جميلًا..

وبالمثل قام المقوقس فى مصر بالرد على رسالة النبي ﷺ برد حسن وأهداه هدية قيمة كان من بينها جارية مصرية وهى «مارية القبطية» رضي الله عنها.

والسؤال هنا..

ما الذى يدفع قيصر الروم ومقوقس مصر لسلوك هذا المسلك الدبلوماسي مع النبي ﷺ رغم أن الرسالة تأتيهم من الجنس العربي

- المُحتقر لديهم أصلًا - كذلك تأتيهم الرسالة بعقيدة ودين جديد بالكامل لا يخاف فقط عقيدة كنيسة روما بل يخالف المسيحية فى أصلها !

ونترك الإجابة لذكاء القارئ..

والشاهد الثانى أن الدبلوماسية بين المسلمين والروم انتهت فى زمن النبي ﷺ وذلك فى أول موقعة عسكرية بين الروم والمسلمين فى غزوة «مؤتة» الشهيرة والتى كان سببها أن أحد ولاة الروم على بصري قتل رسول النبي ﷺ إليه.

فأمر النبي ﷺ بإنفاذ الغزوة فى ثلاثة آلاف مقاتل للإنتقام للحارث بن عمير الموفد من النبي ﷺ لحاكم «بُصري» الغسانى.

وبغض النظر عن نتيجة المعركة المذهلة التى صمد فيها ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين ضد مائة ألف مقاتل من الروم بخلاف المدد القادم لهم من مشركى العرب[1].

(١) تاريخ الإسلام، الجزء الأول والثانى، العلامة محمود شاكر.

فالشاهد هنا ليس فقط فى صمود جيش المسلمين رغم استشهاد قواده الثلاثة ونجاح خالد بن الوليد بعد ذلك فى إنهاء المعركة بالتعادل ونجاحه فى النجاة بجنده من حصار الروم الرهيب[1].

بل الشاهد المذهل أن نتيجة هذه المعركة والتى خسر فيها جيش الروم رغم كونهم بعدد الحصي لابد أن تكون إنذارا كافيا للخطر القادم على دولة الروم..

لهذا فالسؤال هنا..

(١) فى هذه الغزوة خرج خالد بن الوليد لأول مرة مقاتلا جنديا فى أول معركة له مع المسلمين تحت قيادة زيد بن حارثة وعقب استشهاد قواد الغزو زيد وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب استلم الراية خالد بن الوليد بترشيح المقاتلين له لعلمهم بمدى براعته فنجح فى النجاة بالجيش وأطلق النبي ﷺ لقبه الخالد سيف الله المسلول في تلك الغزوة.

كيف لم يبادر قيصر الروم بإرسال جحافل جيوشه إلى الجزيرة العربية للقضاء على دولة الإسلام الناشئة رغم وقوع هذا الخطر الرهيب عليهم ؟

وهذا رغم استقرار الأحوال السياسية للرومان وعدم وجود أى موانع تعطلها عن التصدى لخطر المسلمين ؟!

بعكس الفرس الذين عانوا الاضطراب بسبب مقتل كسري.

فلماذا انتظر الروم طويلا لسنوات حتى وصل المسلمون بجيوشهم إلى حدود الشام ؟!

الطريف في الموضوع أن غزوة مؤتة التى جرؤ فيها المسلمون على المبادرة بمهاجمة معاقل الروم كانت قبل فتح مكة أ فقد وقعت غزوة مؤتة عام ٦٢٩ ميلادية الموافق لجمادى الأولى من العام الثامن للهجرة بينما كان فتح مكة فى شهر رمضان من نفس العام الهجرى.

أى أن النبي ﷺ بادر بغزو الروم قبل أن يستتب له الأمر أصلًا على الجزيرة العربية..

فضلًا على بقاء دولة قريش وحلفائها مما يعنى أن الروم وحلفائهم من عرب الشام كانت لديهم الفرصة السانحة تماما لتكوين حلف هائل ضد المسلمين

فلماذا لم يفعلوا ؟!

وأيضًا نترك الإجابة لذكاء القارئ

وباختصار..

فإن مبادرة النبي ﷺ بكتابة رسائل الدعوة لملوك الأرض من حوله ومبادرته بالهجوم على حدود دولة الروم بمثل هذه القوة قليلة العدد ونجاحه فيها هى أمور ووقائع لا يمكن أن تجد لها مثيلا فى تاريخ الدول المعروف لا سيما مع استمرارية حبل التوفيق الممتد منذ وقت إرسال الرسائل حتى إسقاط دولتى فارس والروم تمامًا.

ولا يوجد أى قياس أو تفسير عقلي للتاريخ يمكنه أن يقدم أسبابًا منطقية إلا بوضع العامل الإلهى فى معادلة التفسير.

الفصل الثالث

إثبات صحة الرسالة من خلال التاريخ الإسلامى

الفصل الثالث

إثبات صحة الرسالة من خلال التاريخ الإسلامى

إن تجربة الدولة الإسلامية الأولى التى أسسها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثم تجربة دولة الخلافة تحمل في طياتها إثباتات صريحة عقلية على وجوب وضرورة توافر العامل الإلهى فى تأسيسها وانتصاراتها التى جعلتها القوة العظمى الأكبر فى عالمها..

وليس المقصود بذلك هو عموم وقائع التاريخ الإسلامى حيث تقلبت الحوادث بدولة الخلافة طويلا على امتداد الزمن..

لكن المقصود هو وقائع محددة بعينها فى تاريخ الخلاف الراشدة بداية من عهد الصديق أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثم بعد ذلك حوادث متفرقة جرت فى دولة الإسلام فى زمن الفرقة.

وكالعادة سنجعل القياس والمصدر هو العقل المجرد ومبادئ التاريخ البشري والسياسي لكى نعرف موقع هذه الحوادث المتفردة التى يقف أمامها العقل التحليلي عاجزا عن التفسير..

وكالعادة أيضا ننبه إلى أننا سنلجأ فى بحثنا إلى الوقائع التاريخية الثابتة التى لا خلاف على حقيقة وقوعها بين المؤرخين العرب والغربيين.

إن منطق تحليل التاريخ المعروف في العالم حمل لنا تفاصيل قيام وصعود الدول في مختلف حضارات العالم القديم والحديث.

كما حمل لنا تجارب بعينها تعتبر تجارب شديدة الخصوبة من التفوق والكمال والقوة حيث نشأت دول كبري سيطرت على مساحات هائلة من الأرض واستمرت لقرون محافظة على تفوقها.

كما حمل لنا التاريخ أيضا وقائع نادرة وملفتة لدول كسرت الرقم القياسي من حيث الإنجاز العسكري.

كما احتوى التاريخ على معارك عسكرية نادرة أيضًا تغيرت النتيجة الحتمية فيها بالهزيمة إلى نصر كبير ومتفرد من قوة صغيرة على قوة كبري وتعتبر سجلات المعارك أحداثًا قياسية لا تتكرر إلا كل عدة قرون وهى معارك كسرت القواعد التقليدية لعلم العسكرية.

لكن هذه السجلات القياسية كلها - سواء في تكوين الدول أو فى المعارك المتفردة - لم تحتو قط على تجربة مشابهة أو إنجاز مقارب لما حدث مع تجربة دولة الإسلام فى عموم التاريخ البشري المقروء !

هذا بالطبع إذا تم استثناء الدول التى حكمها وأسسها أنبياء أو رسل..

وهذا الاستثناء نفسه يخدم قضيتنا التى نناقشها فى أن العامل الإلهى لابد أن يكون المحرك الوحيد لهذه التجارب وإلا فلا يوجد تفسير لها يتسق مع العقل.

وتجربة دولة الإسلام أكبر دولة فى تاريخ الأرض تحققت فيها عوامل التفرد من الكم والكيف.

فالتفرد الذى نشأت به دولة الخلافة وتطورها واتساع رقعتها احتوى فى داخله على إعجاز لا يمكن تفسيره بالمنطق البشري ولن تجد له قياسا تاريخيا مشابها يمكنه تفسيره وظلت دولة الخلافة ومعاركها تحتوى فى داخلها على رقم غائب في المعادلة لابد من وجوده حتى تستقيم تلك المعادلة مع حدود المنطق.

لأن التفوق والإنجاز الهائل الذى تحقق لدولة الإسلام لم يكن مُعجزا فقط من ناحية احتوائه على نجاح استثنائي.

بل النقطة المثيرة بحق هى أن التجربة كلها كانت - ولا زالت استثناء - من حيث التكرار.

لأن الذى نعرفه عن الطفرات غير المتكررة أنها طفرات استثنائية نادرة التكرار.

لكنها مع تجربة دولة الإسلام انقلبت للنقيض وصارت كلها عبارة عن سلسلة طفرات غير مفهومة إذا تم استبعاد معادلة التوفيق الإلهى منها..

والمثير أن هذا التفرد لم يكن فقط موجودًا أيام حياة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ..

بل استمر مصاحبا لدولة الإسلام ومتكررًا بحذافيره طالما كان متماشيًا مع نفس المبادئ التى أرساها القرآن والسُنة المشرفة.

ولم يحدث الفشل التام والإنكسار الهائل إلا عندما تنازلت الدول عن هذه المبادئ.

فإنكسارات الدولة الأموية فى أواخر عهدها والعباسية عقب اجتياح المغول أوسقوط الخلافة الأموية فى الأندلس وبعدها دولة المرابطين والموحدين وانهيار الخلافة العثمانية فى آخر مائة عام لم يحدث إلا عندما تخلي حكام هذه الفترات عن المبادئ التى تأسست عليها تلك الدول في بداية تجربتها.

وهذه النقطة بالذات تعتبر نقطة المفصل التى نعتمد عليها في هذا الفصل..

فالأساس التى قامت عليه دولة الإسلام فى بدايتها لم يكن معتمدا على وجود النبي عليه السلام بشخصه بل كان أساس الدولة معتمدًا من البداية على أن الدولة باقية وستبقي وستبلغ مشارق الأرض ومغاربها بعد وفاة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقط..

إذا تم الإلتزام بمبادئ القرآن والسنة المشرفة..

وهذا ما قرره القرآن الكريم صراحة حيث جعل أساس التكوين والبقاء لدولة الإسلام مرهون فقط بتوفيق الله ﷻ ونصره المؤزر ووعده المقرر إذا استقام المسلمون على أمر الله في القرآن والسنة التي بلغها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ..

وهذا وحده دليل قاطع على صحة رسالة الإسلام..

فمن المعروف علميا أن النظرية العلمية تبدأ بنص نظرى تكمن قيمته فى تحديد المبادئ التى ينبغي أن يقوم عليها التطبيق العملى..

فإذا تم التطبيق العملى - على أساس المبادئ النظرية - ونجحت التجارب فى إثباته مرات عديدة كان هذا دليلًا قطعيًا على صحة النظرية وصحة مبادئها..

وقد جاءنا القرآن الكريم بآيات بينات وجاءت السنة المطهرة بتوثيق وتفصيل لهذه الآيات يقوم على أن المؤمنين بالإسلام إذا آمنوا واتقوا فإن الله سينصرهم حتما مهما كانت قوة عدوهم..

وقام الأساس النظرى فى القرآن الكريم على اعتبار أن عامل النصر هنا ليس مرتبطا بقوة الإمكانيات أو كثرة الجيوش أو عوامل التفوق الدنيوى.

بل إن عامل النصر - وفق نص القرآن - كان مرهونا بالإلتزام والتقوى وبذل أقصي ما لدى المسلمين من إمكانيات وجهد وبعدها صدق التوكل..

وسيتحقق النصر حتما بإرادة الله حتى لو كانت تلك الإمكانيات التى جندها المسلمون إمكانيات معدومة بالمقارنة إلى إمكانيات عدوهم..

وهذا ما نص القرآن فى أكثر من آية..

يقول رب العزة.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧].

ويقول ﷻ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥].

ويقول ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

وفى الآية الكريمة السابقة نجد النص صريحا وواضحا لا لبس فيه..

فالله ﷻ يأمر المسلمين بأن يعدوا ما «استطاعوا» من القوة ولم يأمرهم بأن يعدوا «القوة المناسبة» لعدوهم..

ثم وعدهم بعد ذلك بالنصر الكاسح المؤزر بغض النظر عن مخالفة هذا التصور للمنطق العقلي..

هذه هى النظرية التى حملها القرآن الكريم وطبقها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإذا بالتطبيق المبهر يفرز الانتصار تلو الآخر رغم تفاوت مقاييس القوة إلى درجة مذهلة.

فقد واجه المسلمون مشركى مكة فى معركة بدر الكبري وهم ثلثمائة مقاتل وليس لديهم إلا السيوف والرماح بلا ركائب تقريبا وانتصروا على المشركين وكانوا بقوة ألف فارس.

ثم تكرر النصر في غزوة أحد – وكان من بين المشركين يومئذ أبرع قائد عربي وهو خالد بن الوليد – وانتهت المعركة أيضا بانتصار المسلمين رغم كثرة الشهداء.

لكن العبرة بالنصر والهزيمة فى الحروب ليس بكثرة الضحايا بل بتحقيق الهدف وقد كان هدف المشركين غزو المدينة فى داخلها وفشلوا فى ذلك رغم أنهم كانوا ثلاثة أمثال عدد جيش المسلمين.

ثم انتصر المسلمون فى مواجهة الحلف القرشي الأكبر في غزوة الخندق رغم وجود خالد بن الوليد معهم ومعه زمرة من أبرع فرسان العرب قاطبة مثل عمرو بن عبد ود ورغم أن المشركين كانوا عشرة آلاف مقاتل بخلاف حلفائهم من بنى قريظة الذين كانوا شوكة في ظهر المسلمين من الخلف.

ففشلت الغزوة وانتصر المسلمون أيضا على يهود بنى قريظة بعد فرار قريش.

وبالنظر إلى مقياس القوة العسكرية والتخطيط الإستراتيجى فإن قريشا والعرب واليهود كانوا أضعافا مضاعفة عن قوة المسلمين لكن المسلمين طبقوا المبادئ النظرية التى حملها القرآن فإذا بالنتيجة الصاعقة تثبت نفسها عدة مرات.

ليس هذا فقط..

بل إن هذا التاريخ يحمل لنا دلالة عظيمة فى قصة سيف الله المسلول خالد بن الوليد..

والذى اعترف به الغرب فارسا وقائدا عسكريا لا يشق له غبار..

والسؤال هنا..

لقد حضر خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معركتىّ أحد والخندق وتحت يده جحافل من الفرسان تفوق عدة وعتاد المسلمين أضعافا ورغم هذا لم ينجح خالد فى تحقيق أى هدف استراتيجي ضد المسلمين فى معاركه ضدهم..

وفى المقابل..

عندما انضم خالد للمسلمين وصار سيف الله المسلول خاض أكثر من مائة غزوة ومعركة منها معارك عالمية كاليرموك والفراض وكان تحت يده من القوة عُشْر قوة عدوه أو أقل..

ورغم هذا حقق الانتصارات المبهرة وبزغ نجمه في التخطيط العسكري بخطط عسكرية سبق بها عصره.

فما هو العامل الذي تغير في خالد بن الوليد حتى يبزع نجمه هذا البزوغ بعد الإسلام وتنجح كافة خططه فى خداع العدو بينما عجزت نفس تلك الخطط عن النجاح مسبقا ضد المسلمين أيام كان في صفوف قريش ؟!

وكيف فشل خالد - رغم سمعته المعروفة - ضد المسلمين في أحد والخندق وبعد الإسلام لم يُـهزم خالد قط لا فى معركة ولا في حرب ولا حتى فى مبارزة فردية ؟!

فهذا هو العرض المبسط للنظرية القرآنية فى حياة النبي عليه السلام..

لكن - كما قلنا - الإسلام ودولته لم يتكونا لزمن النبي ﷺ وحده بل أعلن القرآن أن الإسلام دعوة عالمية دائمة ونظريته قائمة صالحة ومصلحة لكل الأزمان فمن التزم بمبادئها تحققت على يده نتائجها.

يقول رب العزة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

والآية واضحة المعاني تخاطب جمهور المسلمين أنه إن كان النبي ﷺ قد فاء إلى جوار ربه فإن الله تعالى باق.. ورسالته باقية.

فدعونا نعرض التطبيق العملي للنظرية القرآنية التى تركها لنا النبي ﷺ ونرى أثرها على دولة الإسلام بعد ذلك..

فإذا ثبتت مبادئ النظرية والالتزام بها وأعطت نفس النتائج على امتداد التاريخ الإسلامي فهذا يعنى أنها نظرية سليمة مائة بالمائة وفق منهج التفكير العلمي.

وإذا ثبت نجاح النظرية فى التطبيق بكافة تجاربها فهذا يعنى صدق وجود الله تعالى وصدق رسالة الإسلام التى نزلت لكل الأمم وكل العصور.

أولاً: قرار خروج جيش أسامة بن زيد

وكانت بداية التطبيق العملي للنظرية القرآنية فى غياب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فى أول خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

وقد حكم الصدّيق لمدة عامين كانت فترته فيهما مفصلية وفاصلة لأنها شهدت من بدايتها أصعب مواجهة على الإطلاق وهى حروب الردة التى كانت توشك أن تقضي على دولة الإسلام الوليدة..

والأهم في تلك التجربة..

أنها كانت التطبيق العملى الأوضح والأوقع لصحة النظرية القرآنية وهل ستستمر بعد وفاة النبي عليه السلام أم لا.

ونظرًا لأن تجربة أبي بكر هى التجربة الأولى فقد جاء التطبيق نموذجيا متكاملا لدرجة الإعجاز وأثبت فيه المسلمون أن مبادئ القرآن الكريم المنزلة بالوحى الصادق هى مبادئ يحوطها تكرار المعجزات طالما كانت التطبيق للمبادئ حرفيا ليس فيه أى تغيير أو تبديل[1].

فأبو بكر الصديق أصر على تطبيق تعليمات وتوجيهات النبي ﷺ بحذافيرها رغم أن بعض كبار الصحابة من مستشاريه كانوا يرون بأن الوضع المتوتر بعد وفاة النبي ﷺ يقتضي تقديم الاجتهاد العقلي والتصرف بمقتضي أحكام السياسة والواقع..

والقصة تتلخص في الآتى..

(١) هذا بالطبع فيما يخص النصوص القطعية فى القرآن والسنة والتى تحمل أوامر مباشرة لا اجتهاد فيها ومنها جاءت القاعدة الأصولية «لا اجتهاد مع نص» وفيما ليس به نصوص فباب الإجتهاد وتفاوت الآراء مفتوح على مصراعيه.

بعد وفاة النبي ﷺ وتعيين خليفته أبا بكر بدأت إرهاصات التمرد على الدولة المركزية إما بردة صريحة كما هو فى حالة مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة فى عهد النبي ﷺ نفسه.

ومنها ما كان مقتصر في البداية على مجرد منع الزكاة عن المدينة وإظهار العنت في قبول المدينة المنورة كقائدة للدولة الجديدة نظرًا لأن عصبية الجاهلية كانت لا زالت في النفوس ولم يستسغ العرب جميعا انصهار القبائل المستقلة فى بوتقة دولة واحدة.

ولم يمض وقت طويل حتى أعلنت القبائل جميعا على مستوى الجزيرة ردتها الكاملة وانفصالها عن سلطان المدينة واضطربت الأمور داخل المدينة خاصة أنه لم يتبق تحت سلطان الدولة الشرعي إلا المدينة نفسها ومكة والطائف[1] وارتدت باقي القبائل..

(١) كادت مكة أن تعلن ردتها بالفعل لولا أن ظهر خطيب قريش سهيل بن عمرو فخطب فيهم خطبة عظيمة ذكرهم فيها بأنهم حاربوا النبي ﷺ طويلًا حتى فتح

وزادت الحوادث خطورة عندما تجهزت أعتى قبائل العرب بجيوشها وتتابع مدعو النبوة مثل الأسود العنسي وسجاح الكاهنة وجيشوا أعدادًا غفيرة وسلاحًا وفيرًا.

وبالتالى..

كان الوضع فى المدينة عبارة عن دولة لم يتبق تحت سلطان حاكمها إلا عاصمته فقط وسقطت باقي أقطار دولته في أيدى متمردين يملكون القوة والمنعة ولم يتبق أمامه وقت طويل حتى تبدأ تلك القوات المتمردة بالزحف على المدينة..

ورغم أن الفكر السياسي والإستراتيجى يقول بأن الوضع في المدين يومئذ وضع بالغ الصعوبة إلا أن أول قرار لأبي بكر الصديق جعل من الأمر وضعا مستحيلًا..

مكة وقد عفا عنهم النبي ﷺ يومئذ ونجح سهيل في وأد الفتنة فى منبتها وصدقت فيه نبوءة النبي ﷺ من أنه سيقف موقفا عظيما ببلاغته يذود فيه عن الإسلام.

ذلك أن الجيش الرئيسي للدولة كان متمركزا فى معسكره تحت قيادة أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جهز هذا الجيش لغزو قبائل عرب النصاري والروم الذين واجههم جيش المسلمين فى غزوة تبوك من قبل..

وعندما اشتد المرض بالنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ تأجل خروج الجيش الذى اجتمع فيه أبطال الصحابة وخيرة فرسانهم وتوفي النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ والجيش لا زال رابضا في معسكره وبقي أسامة بن زيد ينتظر قرار الخليفة..

ففاجئ أبو بكر جميع الصحابة بإصدار أوامره للجيش بالتحرك نحو حدود الروم كما كان مقدرا له من قبل رغم أن الظروف السياسية المشتعلة كانت قد بلغت أقصاها فى العاصمة واعترض عمر بن الخطاب وكبار الصحابة على هذا القرار لأكثر من سبب..

الأول: أن قبائل العرب المرتدة تجهز بعضها بالفعل لغزو المدينة ولم يكن في المدينة جيش بكفاءة وقوة جيش أسامة بن زيد الذى يعتبر القوة الضاربة فى تلك الفترة فإذا خرج هذا الجيش فى

أقصي حدود دولة الإسلام لحرب حلفاء الروم فالمدينة ستصبح مكشوفة بالكامل أمام جحافل الردة

الثاني: لم تكن حدود المسلمين عند تبوك تواجه خطرا محدقا أو تهديدا مباشرا من دولة الروم أصلاً بل كان الوضع شبه مستقر ولا يماثل الخطر الهائل القائم فعلا المتمثل في قبائل الردة وجيوشها.

وبالتالى..

فإن خروج الجيش الرئيسي لحرب الروم لا يتوفر له الضرورة أو الإستقرار الكافي لحرب خارجية تخوضها الدولة وهى على وشك السقوط

والنقطة الهامة أيضًا..

هى خط سير الجيش نفسه حيث سيقطع الجيش مسافة هائلة من المدينة المنورة إلى نهاية الساحل عند تبوك وسيمر في خط سيره بقبائل كثيرة من القبائل المتمردة بمعنى أن خطوط مواصلات الجيش

ستكون مهددة بحرب نظامية أو حرب عصابات قبل حتى أن يلقي عدوه المكلف بقتاله.

الثالث: فى ظل تمرد الجزيرة العربية بأكملها على حكم الدولة كيف يمكن قبول قرار الخليفة بتوجيه الجيش الرئيسي لحرب عدو كامن هائل القوة مثل دولة الروم.

فهذا من الناحية الإستراتيجية البحتة لعب يصب فى مصلحة العدو قطعًا لأن الجيش الرئيسي إذا واجه الروم فانهزم فسيفقد المسلمون غطاءهم العسكري وإذا انتصر فلن يسكت الروم ومتوقع جدا أن يبادروا بتجهيز جيوشهم للرد على دولة الإسلام مما يعنى مضاعفة الأخطار التى تواجهها المدينة.

الرابع: لو كان خروج الجيش الرئيسي ضروريا فقد كان رأى الصحابة – وفق التدبير السياسي – استبدال القائد وهو أسامة بن زيد رضي الله عنهما نظرًا لصغر سنه البالغ مع عدم خبرته..

هذه كانت هى مجمل اعتراضات الصحابة والتي هى بالمقياس العلمى فى فنون الإستراتيجية[1] اعتراضات منطقية مفهومة.

لكن موقف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مختلفا بسبب وجود العامل الرئيسي المتمثل في وجود النص والأمر الإلهى الذى أمر به النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لهذا كان رد أبي بكر صارما لم يقبل فيه بالمشورة لأن أمر الله بالشورى كان -ولا زال- محكوما بالشئون التى لا وجود فيها للنص التشريعي..

(١) فن إستراتيجية الحرب الشاملة هو تنسيق الجهد العسكري مع التجهيز السياسي والإقتصادى بما يُعرف باسم تجهيز الدولة للحرب ويعتبر هذا التجهيز من العوامل الرئيسية للفوز في أي معركة وتحقيق الأهداف العسكرية مرتبط دومًا باستقرار الدولة داخليًا.

فقد قال أبو بكر..«إن النبي ﷺ أوصي وشدد فى الوصية بأن أنفذوا بعث أسامة ووالله لو تلاعبت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين لأنفذن بعث أسامة».

أى أن أبا بكر تمسك بالنص والأمر النبوى وترك أمر الإعتراضات الجوهرية جانبًا تمامًا كما فعل في موقف صلح الحديبية الذى كان مشابها لهذا الموقف واتضح بعد ذلك صدق المعادلة القرآنية فى وجوب الإتباع وترك أمر النتائج لله.

كما رفض رفضًا قاطعًا أن ينزع أسامة بن زيد من قيادة الجيش وقال لعمر بن الخطاب..«ويحك يا ابن الخطاب أيوليه رسول الله وتريد منى أن أعزله».

ويتضح من الشدة التى اتبعها أبو بكر في ردوده مدى إدراكه وفهمه البعيد لمقاصد لشريعة فطالما أنه آمن بالله ورسوله فلا يمكن أن ينفصل هذا الإيمان عن تنفيذ الأوامر الإلهية المشددة دون

الاحتجاج بالاستحسان العقلي أو الإقتناع الشخصي وإلا ما الفارق بين المعبود والعابد ؟!

لأن المجال الذى يجوز فيه الاجتهاد والشورى والاستحسان العقلي هو مجال السياسة العامة فى أمور المستجدات التى ليس فيها أمر صريح.

لهذا رأينا أبا بكر نفسه يمارس الشورى والاجتهاد في أمر أعظم من أمر جيش أسامة وهو أمر اختيار الخليفة والحاكم وانعقدت البيعة في هذه المناقشة عند سقيفة بنى ساعدة بمشورة جماعية لكبار الصحابة نظرا لأن النبي ﷺ لم يوص بنص صريح على اختيار أبي بكر لمنصب الحاكم وإنما اكتفي فقط بالنص على أبي بكر فيأمر إمامته للصلاة على المسلمين.

وبناء عليه..

ورغم أن التلميح لاختيار أبي بكر كان تلميحا شبه صريح إلا أن عدم وجود النص الصريح القطعى أخذه الصحابة على أنه مجال مفتوح للمناقشة والشورى.

لكن فى أمر جيش أسامة بن زيد كان الأمر قطعيا من النبي ﷺ: «أنفذوا بعث أسامة».

وبالفعل بعد هذه المناقشة التى لم تستمر طويلا اقتنع سائر الصحابة بما قاله أبو بكر ثم جاء التنفيذ الحرفي لوصايا النبي ﷺ وأوامره[1].

وتتبدى الإثارة فى سير الحوادث بعد ذلك..

فعلى عكس كل التوقعات العقلية بأن يكون خروج جيش أسامة نقطة ضعف هائلة وتهديد للعاصمة في زمن الحرب فضلا على الأخطار التى سيواجهها الجيش أثناء سيره الطويل.

(١) لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة مغازى بن عقبة وكتاب التاريخ الإسلامى لمحمود شاكر، الجزء الأول والثاني.

جاء التدبير الإلهى ليقلب الظروف العاتية إلى ظروف مواتية فى سيناريو لا يمكن أن يخطر ببال أعتى المتفائلين.

فكانت البداية أن القبائل العربية التى شهدت مرور الجيش متجها صوب حدود الشام رأت في خروج الجيش نفسه - وسط هذه الظروف ـ علامة قوة واستقرار تتمتع به المدينة المنورة وإلا لما جرؤ الخليفة على أن يرسل هذا الجيش الضخم لقتال الروم وهو ينتظر قتال المرتدين من سائر أنحاء الجزيرة العربية !

ولنا أن نتخيل أن التفكير العقلي والإستراتيجى نفسه هو الذى ارتعدت بسببه القبائل التى شهدت مرور الجيش فكانت النتيجة أنهم لم يكتفوا فقط بعدم التعرض للجيش بل إن معظم قبائل ساحل الجزيرة ترك نيته المؤكدة فى إعلان التمرد ورجع عن هذا وأرسلوا الزكاة كما كانوا يفعلون!

وبالتالى..

فمجرد خروج الجيش نفسه رد عن العاصمة وعن المسلمين معارك كثيرة كانوا سيتعرضون لها لو نفذت تلك القبائل نواياها بإعلان التمرد والاستمرار فيه والسير للمدينة.

ولسنا في حاجة للقول بأن أبا بكر والصحابة جميعًا ما كان يخطر ببالهم أن يترك مرور الجيش هذا الأثر عند هذه القبائل وإلا لاحتج أبو بكر على الصحابة بهذا التفكير وأوضح لهم أنها خطة مقصودة لكن أبا بكر احتج فقط بأنه ينفذ الأمر النبوى لكن النتائج ليست من شأنه.

والنتيجة التالية تمثلت فى أن جيش أسامة لم يواجه قتالًا من جيش العدو لعدم حضور هذا الأخير أصلًا.

فاكتفي أسامة ببضع غارات سريعة أثبت فيها سطوة المسلمين ثم عاد بجيشه للمدينة ولم يخالف أمر الخليفة أو يجتهد فيه فيتوجه بقرار منفرد لقتال بعض قبائل المرتدين المستمرة فى تمردها..

ونقطة التساؤل هنا..

هو موقف الروم العجيب وحلفائهم من العرب..

فمن المؤكد أن خروج جيش أسامة تم رصده ثم بعد ذلك هاجم جيش أسامة بعض مناطق العدو فعلًا وبالتالي أصبح الخطر محدقا بحدود الروم الجنوبية.

والروم وحلفائهم من العرب لديهم ثأر قديم مع جيش زيد بن حارثة «والد أسامة» وهم أيضا يعلمون تماما بالمخاطر التى تحيق بعاصمة الخلافة وانتفاض قبائل الردة ضد المسلمين..

فكيف بعد هذا كله يسكت الروم وحلفاؤهم عن أهم خطوة منطقية ينبغي اتخاذها وهى تسيير جيش هائل يهاجم حدود المسلمين ويتجه صوب المدينة سواء كان هذا بتنسيق مع قبائل الردة أو بعدم تنسيق ؟!

وكيف امتنع الروم عن انتهاز أهم فرصة لهم فى تاريخهم لتأمين حدودهم بصفة نهائية فى ظل تبعثر قوات المسلمين المحدودة لقتال قبائل العرب جميعا وخلو المدينة إلا من عدد قليل ؟!

وهنا كما تعودنا نترك الإجابة لذكاء القارئ...

ثانيًا: حروب الردة والهجوم على المدينة

كان خروج جيش أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه دافعًا للقبائل الموجودة بمحاذاة الساحل كى تراجع موقفها كما قلنا.

أما بقية القبائل فكان معرفتها بخروج جيش أسامة دافعًا عكسيًا وشجعهم على محاولة حصار المدينة والهجوم عليها مستغلين غياب الجيش الرئيسي وخلو المدينة إلا من بضع مئات من الصحابة والمقاتلين..

وبالفعل تمركزت قبائل عبس وذبيان بحشودهم خارج المدينة بعد خروج الجيش وأرسلوا للخليفة أبا بكر كي يفاوضوه من موقع قوة.

ولكن أبا بكر رفض التفاوض ورفض الرضوخ لشوطهم بمنع الزكاة التى كانوا يؤدونها للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فرجع رسل عبس

وذبيان لجيشهم وقرروا القتال لكن أبا بكر كان قد فطن للغدر فحذر الصحابة وانتدبهم للدفاع عن المدينة.

وفى واحدة من أعجب معارك التاريخ نجح جيش الصحابة المكون من بضع مئات فى ردع حشود عبس وذبيان وهزموهم هزيمة منكرة على حدود المدينة فارتدوا عنها خائبين.

وتسبب هذا النصر في ثبات المسلمين الباقين على العهد كما تسبب في زيادة الغيظ من المرتدين مما دفعهم لإجراء وحشي تمثل في قتلهم للمسلمين من قبائلهم والذين رفضوا الإنضمام إليهم فى التمرد.

فقرر أبو بكر أنه سيأخذ حق وثأر هؤلاء الشهداء والاستمرار في التعبئة - رغم قلة الإمكانيات - بل والمبادرة بتجهيز المقاتلين وتقسيمها تحت قيادات مختلفة على أن يتولى كل قسم منها قبيلة من القبائل المرتدة..

ورغم عودة جيش أسامة بن زيد بعد قرابة سبعين يومًا فى القتال إلا أن أبا بكر فضل أن يستريح الجيش قليلا بالمدينة قبل توجيهه للقتال مجددًا..

ثم أقدم أبا بكر على أخطر قرار عسكري من الممكن أن يتخذه قائد فى مواجهة عدوه..

كان هذا القرار أنه انتدب الناس والجموع وحشدهم للقتال ثم قسم هذه الحشود إلى ألوية وكتائب مكونة من أحد عشر لواء لا يبلغ أكثرها عدد الأربعة آلاف مقاتل فقط.

أى أنه قام بتقسيم الجيش الموحد لفتح إحدى عشرة جبهة للقتال ودفعة واحدة وفى وقت واحد وليس في كل هذه التقسيمات جيش يتمتع بالإمكانيات والعدد الكافي لوصف «الجيش».

فى حين أن القبائل المرتدة كان من بينها بعض القبائل كثيرة العدد والعدة إلى حد كبير وليس هناك أى لواء من الألوية المقسمة يبلغ عدده أو يكافئ أى جيش من المرتدين..

هذا فضلًا على أنه استبقي عددا من الأنصار كلواء احتياطي للدفاع عن المدينة..

وزاد من خطورة القرار أن الألوية المقسمة كانت ستقاتل فى مناحى الجزيرة العربية كلها على مسافات وخطوط مواصلات هائلة الإتساع مما يعنى أن كل لواء منها كان مسئولا عن نفسه ولم يكن فى الإمكان نجدة أى لواء بمدد من باقي الألوية !

وإذا وضعنا هذا القرار تحت منظار الدراسة الإستراتيجية فلن نجد فى التاريخ العسكري المقروء كله قرارا بمثل هذه الجرأة..

فلا توجد دولة – مهما بلغت قوتها – تقوم بتقسيم جيوشها بهذا الشكل فى مواجهة أعداء مكافئين لها فى القوة فما بالنا إن كان الأعداء يتفوقون أصلا فى العدد والعدة..

والأمر الوحيد المقبول استراتيجيا لهذا التقسيم هو أن الدولة العظمى يكون لها عدة جيوش تقاتل فى عدة جبهات لكن مع شرط أساسي وهو أن تكون هذه الدولة أعظم قوة من مجموع أعدائها بكثير

وبالتالى يكون من المنطق أن تنقسم جيوشها على عدة جبهات فى وقت واحد..

أما أن تكون القوة المتوفرة للدولة هى قوة بالكاد تسمح بتكوين جيشين أو ثلاثة جيوش على أقصي تقدير وفى مواجهة أعداء يتفوقون بأضعاف على مجموع قوات تلك الدولة..

ورغم هذا تقوم الدولة بتقسيم هذه الجيوش الثلاثة إلى أحد عشر قسما يقاتل كل منهما جيشًا مختلفًا فهذا معناه إنتحار عسكري مؤكد تحت أى مقياس منطقي..

ومن ضمن المبادئ العسكرية الأساسية أن نقطة ضعف أى دولة فى زمن الحرب هو مبادرتها بفتح القتال على عدة جبهات فهذا لا يمكن أن يؤدى للنصر بل الصواب أن تتمركز القوة فى جبهة واحدة ما أمكن ذلك وإن انقسمت فيكون القتال على جبهتين فقط ولمدة محدودة وإلا فهى الهزيمة..

وبمراجعة سريعة لأكبر معارك التاريخ وهى الحرب العالمية الثانية..

سنلقي الضوء على النتيجة الفادحة لفتح الحرب في أكثر من جبهة والتى كانت السبب الرئيسي فى هزيمة الألمان بإجماع مؤرخى العسكرية.

فالزعيم النازى هتلر كان يمتلك قوات مسلحة عملاقة مكونة من ستة جيوش[1] وبدأ حربه بتخطيط سياسي متين تمكن به من استغلال ضعف انجلترا وفرنسا وتخوفهم من الحرب فنجح فى استغلال الفرصة ليغزو دول أوربا الضعيفة منعدمة القوة ثم كان إنجازه الأكبر في إسقاط فرنسا إحدى القوتين العظميين مع بريطانيا..

(١) فى التعريف العسكري يبدأ التكوين بالمسميات الآتية «فصيلة ثم كتيبة وتتكون من عدة فصائل ثم لواء ويتكون من عدة كتائب ثم فرقة وتتكون من عدة ألوية ثم جيش ويتكون فرقتين فأكثر» بخلاف الأسلحة المستقلة كالطيران والبحرية ومجموعات الصاعقة.

ثم استعد لغزو بريطانيا بتخطيط استراتيجى بارع أيضا عن طريق عقد معاهدة عدم اعتداء مع الإتحاد السوفياتى الذى كان يمتلك قوة جبارة لكنه وقف متحاشيا الحرب واستغل رغبة هتلر فزوده بالخدمات اللوجستية وغيرها..

وصمدت بريطانيا طويلًا نظرًا لأنها مجموعة جزر يحيطها الماء من كل جانب فأراد هتلر تطويعها بهجمات الطيران التى صبت النيران الكثيفة فدمرت لندن ومعظم المدن الكبري ولكن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا واصل المقاومة..

ولم يكن هناك شك عند كافة المراقبين من انتصار هتلر المؤكد بعد استفحال قوته وجيوشه خاصة بعد أن فتح القتال في الجبهة الإفريقية ونجح فى غزو كافة المستعمرات البريطانية والفرنسية فى ساحل البحر المتوسط واستعدت قواته بقيادة روميل لدخول مصر التى كانت واقعة تحت الإحتلال البريطانى..

وهكذا كانت الصورة أمام العالم تؤكد نجاح هتلر سواء بانتصاراته المتوالية أو بوقوف الإتحاد السوفياتى على الحياد وابتعاد أمريكا تماما عن الحرب واكتفائها بتقديم الدعم لبريطانيا ورفضها القاطع للدخول في الحرب إلى جوار الحلفاء..

ثم فجأة..

تخلت العبقرية الإستراتيجية عن هتلر فاتخذ قرار منفردا بغزو الإتحاد السوفياتى !

ووقف كافة القواد الألمان ضد قرار هتلر الأحمق الذى كان سيدفع بالإتحاد السوفياتى للحرب إلى جانب الحلفاء وهذا معناه خسارة المناجم السوفياتية وإمدادات الحديد فضلا على الإمكانيات العسكرية والبشرية التى يمتلكها الإتحاد السوفياتى والتى ستصب في صالح الحلفاء ولكن ديكتاتورية هتلر كانت عاصفة وأصر على قرار الغزو وأطلق عليه «عملية باربروسا» أو عملية «ذو اللحية الحمراء».

وبالفعل توجهت القوات الألمانية واجتاحت أراضي الإتحاد السوفياتى بنجاح هائل وانهزمت الجيوش السوفيتية أمام القوات الألمانية الخبيرة نظرا لعامل المفاجأة وأيضا لأن القائد السوفياتى ستالين كان قد أعدم وتخلص من أبرع قيادات الجيش السوفياتى بسبب خشيته منهم فكانت النتيجة افتقار الجيوش السوفياتية للعقليات العسكرية المكافئة للخبرة الألمانية..

لكن هذا الأمر لم يستمر طويلا..

فالقرار الإستراتيجى الصائب يحمل النجاح للجيش الضعيف والقرار الخاطئ يحمل الفشل لأبرع الجيوش..

فقد انهزمت القوات السوفيتية وتراجعت طويلا حتى وقفت على بُـعد أربعين كيلومترا من موسكو لكنها مع طول الفترة هضمت المفاجأة كما أفرزت الحرب القيادات الميدانية المناسبة وساعد على انقلاب دفة الأمور توقف الجيوش الألمانية وعدم إقدامها على دخول العاصمة موسكو..

ومع التوقف الألمانى دخل فصل الشتاء ودخول الشتاء للأراضي الروسية معناه الموت الناقع فانقلب الطقس الروسي حليفا – كالعادة – لأصحاب البلد وكما ساهم فى إنقاذهم من غزو نابليون من قبل كان له دور كبير في تحطيم معنويات الجيش الألمانى وانخفاض المؤن بعد تعطل خطوط المواصلات واستغلها الجيش السوفياتى ليهاجم الألمان بضراوة شديدة حتى وقعت الواقعة وتم حصار الجيش الألمانى السادس بأكمله وسط الجليد فى ظل ظروف مأساوية.

وبعد فترة بسيطة استسلم هذا الجيش بأكمله للسوفيات ليكمل الجيش الروسي طريقه بعد ذلك حتى دخول العاصمة برلين لا سيما

عقب انضمام أمريكا للحرب بعد أن ضرب اليابانيون الأسطول الأمريكى في بيرل هاربر[1].

وهكذا..

سقط التفوق العسكري الألمانى الهائل بسبب قرار استراتيجى خالف كافة الأعراف العسكرية والذى تمثل في إقدام هتلر على غزو الإتحاد السوفياتى قبل أن ينتصر في معركته المصيرية مع بريطانيا..

وهذا ما كان من نتيجته أنه قلب السوفيات من حليف مهادن وداعم إلى عدو فضلًا على خسارته لإمداداتهم..

بخلاف أنه منح البريطانيين فرصة التقاط الأنفاس كانوا فى أشد الحاجة إليها حتى يتمكنوا من التحرك بحرية على المستوى السياسي لدفع الأمريكيين لدخول الحرب.

---

(١) لمزيد من التفاصيل يرجى مراجع كتاب «موسوعة الحرب العالمية الثانية، د. حسين الحسينى» وكتاب «الحرب العالمية الثانية» للدكتور رمضان لاوند وكتاب «معارك الحرب العالمية الثانية - فريد الفالوجى».

وهو ما تم فعلا حيث أن دخول الولايات المتحدة للحرب تم بعملية مخابراتية أمر بها تشرشل نفسه عندما عجز عن إقناع الأمريكيين فأصدر أوامره لجهاز المخابرات البريطانى بالتصرف.

فتمكن جهاز المخابرات البريطانى من خداع المخابرات اليابانية عن طريق تسريب معلومات وخطط عسكرية وهمية تقول بأن الأمريكيين يستعدون لدخول الحرب ومهاجمة السواحل اليابانية عن طريق أسطولهم فى «بيرل هاربر».

وابتلعت اليابان الطعم وقامت بضربة استباقية بسلاح الطيران محت فيها الأسطول الأمريكى من الوجود مما منح الشرعية الكاملة للرئيس الأمريكى روزفلت كى يبرر للشعب الأمريكى قراره بدخول الحرب رغم تعهداته السابقة بعدم الدخول.

أى أن قرار هتلر بفتح الحرب على جبهتين فقط فى نفس الوقت مع خصوم أكفاء له فى القوة كان من نتيجته أن جلب لنفسه عدوين خارقين وهما السوفيات والأمريكان !

وعلى ضوء هذا الشرح المبسط لميكانزم التخطيط العسكري..

فالوضع الذى كانت عليه جيوش المدينة المنورة كان يقول بمدى الخطورة التى ستنجم عن تفتيت القوة العسكرية إلى أحد عشر لواء فى أحد عشر جبهة.

هذا بخلاف أن معارك الألوية الأولى لم يكن من مهامها التصدى لأعتى قوة فى المرتدين وهى جيش مسيلمة والذى كان يستغل الوقت للتجهيز والتحصين والإستعداد لمعركته الكبري مع المسلمين..

والمنطق العقلي المحض يقول بأنه لا توجد فرصة للمسلمين لتفادى الهزيمة المؤكدة.

ورغم أن أبا بكر فى هذه المرة لم يكن لديه أمرا صريحا أو نصا من القرآن يقول بتقسيم الجيوش إلا أنه كان يسير على خطى «النظرية القرآنية» التى تقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ

ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٦٠].

فلم يكن في عقيدة المسلمين يومئذ أى رهبة من قصة التفوق العددى وتفوق العتاد لعدوهم فهذا كله في نظرهم عبارة عن هباء منثور طالما خرجوا للقتال بعقيدة سليمة لا تشوبها شائبة وبيقين بنصر الله كما وعد فى كتابه..

وجاءت نتائج الحوادث بتوالى النجاحات المبهرة على مستوى كافة الجيوش دون استثناء..

وكلما فرغ لواء من معركة وجهه الخليفة لمعركة أخرى..

حتى اجتمع جيش المسلمين الأكبر بقيادة خالد بن الوليد لمواجهة مسيلمة الكذاب في أكبر معارك الردة وأكثرها عنفا..

وانتصر المسلمون انتصارا مؤزرا على مستوى الجزيرة العربية بأكملها لتعود كافة القبائل بلا استثناء إلى طاعة الدولة المركزية بعد سلسلة معارك دامية استمرت قرابة عام ونصف..

وكالعادة نوجه السؤال هنا..

كيف -وبأي منطق- نتصور هذا الانتصار الساحق على مستوى كافة المعارك وبهذا النجاح المذهل في ظل وضع استراتيجى لا يتوفر فيه للمسلمين أى نقطة تفوق من أى نوع ؟!

لا سيما وأن الجانبان المتصارعان هنا من العرب أي من نفس الجنس ومن نفس الثقافة والخلفية العسكرية ويتمتع كلاهما بنفس صفة الحمية والجسارة فى القتال.

فما هو العامل الخفي الذى جعل الإنتصار في جانب المسلمين رغم تفوق أعدائهم بنسبة واحد إلى عشرة ؟!

ورغم تضافر الظروف الخارجية كلها ضد المسلمين ؟!

من المستحيل أن نجد إجابة منطقية يقبلها العقل المتجرد إلا إجابة «النظرية القرآنية» التى بعثها الله تعالى ووعد فيها بالنصر لمن يقاتل في سبيله حتى لو تضافرت كافة العوامل لهزيمته..

ومن الجدير بالذكر هنا أن ننبه مجددا لنقطة التفرد التى تميزت بها التجربة الإسلامية وهو أن تلك المعارك وهذه الأحداث النادرة عرفها التاريخ البشري كثيرا في مراحل استثنائية وذكرها التاريخ كتجارب متفردة لا تتكررلكنها مع التجربة الإسلامية كانت عبارة عن خط متصل لا ينقطع ويتكرر باستمرار وبشكل يثير الذهول لأعدائهم..

والنقطة الأكثر إثارة..

أن المسلمين كانوا يتعاملون مع الأمر على أنه أمر طبيعى فيتخذ الخليفة قراراته الإعجازية وتكليفاته بالمهام العسكرية فيتلقفها القادة بالتنفيذ وكأنهم بصدد أمر تقليدى لا حاجة لهم فى مناقشته ولا يثير الجنود أو القادة أدنى تحفظ أو سؤال عن الفارق الضخم بين القوة الواقعية المتوفرة للجيوش على الأرض وبين الأهداف العسكرية المطلوب تنفيذها..

فكانت الجيوش تخرج للغزوات لأداء تكليفات مستحيلة دون تحفظ ومهما بلغت قوة العدو وكأنهم بصدد عمل تقليدى يفعلونه كل يوم !

وتأتى النتائج بعد ذلك لتؤكد على هذه الحقيقة..

وهى أن المسلمين بالفعل كانوا يقومون بتلك المهام التى أثبتت التجربة أنها مهام تقليدية لا وجود فيها لإحتمال واحد بالهزيمة بل كان المستغرب لديهم هو حصول أى كبوة فى أى غزوة مهما كانت مبررات الكبوة منطقية ومحتملة الحدوث [1].

(١) بالفعل تعامل المسلمون مع الكبوة التى تعرض لها جيش أبي عبيد الثقفي أمام الفرس على أنها كبوة مستغربة ما كان لها أن تحدث رغم فارق القوة الهائل بين جيش أبي عبيد الثقفي وبين جيش فارس وظروف القتال نفسها في تلك الغزوة المعروفة باسم موقعة الجسر حيث تم حصار جيش المسلمين عبر مانع مائي متسع وهوجم جيش المسلمين أثناء عبوره للجسر.

فما هو الدافع أو السر الذى جعل من تلك المهام غير التقليدية أمر عاديا بالنسبة للمسلمين يفعلونه دون أدنى تحفظ ؟!

هو بلا شك الثقة فى مبادئ النظرية القرآنية التى نزل بها الوحى وطبقوها مرات وكرات منذ عهد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واستمروا يثبتونها فى كل مرحلة بعد ذلك.

ثالثًا: معارك فتوحات فارس والروم وعجائبها !

لو أننا طبقنا قواعد العلوم السياسية على الوضع الذى كان في دولة الخلافة عقب حروب الردة فسنجد أمامنا دولة ناشئة خرجت لتوها من حروب متوالية لقمع التمرد العسكري الرهيب الذى عم سائر أنحاء الدولة خسر فيها المسلمون آلاف الشهداء من خيرة الصحابة والمقاتلين.

وبالتالى..

فالرؤية السياسية السليمة التى يفرضها الواقع تقول بأن الحاكم عليه أن يوسع من دائرة الإستقرار وتقوية دولته إجتماعيا وإقتصاديا لعدة أعوام دون أن يفكر فى أى حرب قادمة لأى سبب..

بل عليه بذل الجهد السياسي الكبير كى لا يضطر لخوض حرب دفاعية ضد أى عدو متربص لأن خوض أى معركة كبري في ظل تلك الظروف معناه استنزاف لا نهائي لقدرات الدولة الناشئة ومواردها المحدودة.

هذا بالطبع ما تفرضه الرؤية السياسية التقليدية فى تلك الحالة..

ولنا أن نتخيل أن دولة الخلافة فى هذا الوقت الحساس لم تبادر لخوض حرب وفقط.

بل بادرت لوضع الخطط الهجومية لإعلان الحرب على أعتى قوتين فى العالم القديم دون أن تمنح نفسها فرصة التقاط الأنفاس عقب انتهاء معركة اليمامة الهائلة آخر وأقوى حروب الردة !

ولا شك أننا لو وضعنا هذا السيناريو أمام أى مستشار سياسي أو عسكري دون أن نخبره بأن هذا السيناريو قد وقع فعلًا..

فسيكون رد الفعل من هذا المستشار هو الحكم على هذه الدولة بالضياع التام بنسبة مائة فى المائة دون أن يضع احتمالا عكسيا ولو حتى بنسبة واحد فى المليون..

فالدولة التى تعانى من تمرد وعصيان مسلح يعم أطراف الدولة كلها ثم تنجح فى فرض سيطرتها على المتمردين هى دولة بلا شك قابلة للإنهيار إذا فاجأها أى طارئ آخر يقوض أو يهدد الإستقرار.

وعليه..

فلم توجد دولة فى العالم تعرضت لهذه الظروف إلا وتفادت كافة الأزمات التى يمكن أن تهز الإستقرار المتذبذب الناشئ عقب حرب كبيرة مثل حرب الردة.

هذه واحدة..

والثانية وهى الأنكى..

من المستحيل أن يقتنع مستشار سياسي أو عسكري بأن قيادة هذه الدولة تمتلك الجرأة لاتخاذ قرار حرب بنفس الجيوش التى خرجت منهكة من معارك متوالية..

وضد من..؟!

ضد أقوى قوتين فى العالم فى وقتهما !

والأمر يشبه أن تقوم دولة إفريقية منعدمة الموارد بالسيطرة على تمرد عسكري داخلها وفور نجاحها فى إنهاء التمرد - الذى خسرت فيه الكثير من قوتها العسكرية المحدودة - تقوم بإعلان الحرب على الولايات المتحدة وروسيا معا وفى وقت واحد!

فهل يوجد عاقل يمكن أن يتصور أو يتوقع بقاء هذه الدولة على الخريطة أصلًا ؟!

لكن دولة الخلافة فى عهد الصديق والفاروق اتخذت القرار فعلًا ونفذته وحاربت الفرس والروم معا فأسقطت ومحت وجود

الإمبراطورية الفارسية نهائيًا ثم فضت على سلطان الروم فى الشام وإفريقيا وحصرت الروم داخل حدودهم التاريخية فى أوربا !

فكيف يمكن تصور حدوث مثل هذه المعجزة ؟!

فالروم والفرس لا يوجد مؤرخ أو حتى شخص عاقل يمكن أن يُهَون من قوتهم الكاسحة وإمكانياتهم الهائلة والمسلمون قوتهم محدودة ومعروفة أيضا..

ولو أنهم انتصروا على الفرس والروم معًا ولكن بقوة تقترب – ولو قليلًا – من قوة الدولتين فساعتها يمكن أن نفسر هذه المعجزة العسكرية بأن جيوش العرب حطمتهما بحسن التدريب وشدة البأس وبراعة استخدام أدوات القتال وأسلحته..

لكن هذا غير متحقق أصلا..

فكيف تمكن السيف والرمح مع قلة العدد من تحقيق هذه المعجزة..

وأى سلاح هذا الذى استخدمه المسلمون طيلة معارك الفتوحات فصار النصر حليفهم على طول الخط ؟!

لا شك أن الإجابة المنصفة تفسر..

وهى المعادلة القرآنية الثابتة والتى معطياتها صدق العقيدة ونُبل الهدف فتكون النتيجة تدخلا إلهيا كاملا يحقق النصر بلا أدوات.

ولعل القارئ الكريم يتذكر أننا عندما تحدثنا عن الوضع السياسي في ذلك الحين قلنا إن القوتين العظميين فى هذا الزمان كانتا فارس والروم..

وكانت الحرب بينهما سجالًا وكلتاهما تمتلكان أعتى الجيوش على مستوى العالم من حيث العدة والعتاد والتكتيك الحربي.

ويتذكر القارئ أيضا أننا شرحنا كيف كان الخوف والرعب يهيمن على قلوب العرب في الجزيرة من ناحية الفرس والروم وكيف أن قوة الدولتين كانت مضرب الأمثال حتى أن العربي إذا أراد أن

يضرب المثل بكارثة ماحقة يقول: «ما الذى حدث هل هجمت غسان ؟!».

والغساسنة والمناذرة كانوا مجرد حلفاء فقط للروم والفرس بالإضافة لنظرة الفرس والروم الدونية للجنس العربي.

وهذه الأمور كلها كانت أمرًا طبيعيًا نظرا للفارق غير المحدود بين طبيعة الإمبراطورية المتمثلة فى فارس والروم والطبيعة القبلية المتمثلة فى الجزيرة.

ولو أننا نظرنا فقط للجانب العسكري فالفارق المذهل بينهما وبين العرب يتمثل في الآتى..

* الروم والفرس كانوا يمتلكون جيوشا تعدادها بملايين المقاتلين بخلاف إحتياطى بشري هائل وانتشار لقواتهم على مختلف أراضي الإمبراطورية حيث سيطرت فارس على العراق وآسيا وسيطرت الروم على أوربا والساحل الإفريقي والشام.

بخلاف آلاف الحصون والمدن العسكرية ذات الأسوار الهائلة بالإضافة للخبرة القتالية العاتية التى امتلكها كل منهما من جراء خوض الحروب بشكل مستمر لألف عام تقريبًا..

* طبيعة الجيوش الفارسية والرومية كانت مخالفة تمامًا للشكل الذى يعرفه العرب عن الحروب فالعرب لم تعرف شيئا من أبجديات علوم العسكرية والتخطيط وتقسيم الجيوش إلى كتائب وكراديس فحرب العرب - كما وصفوها - هى حرب غارة ـ ليست حربا نظامية وتعتمد على العشوائية الكاملة فى الهجوم والإنسحاب..

وكان الإستثناء الوحيد فى هذا هو سيف الله المسلول خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذى كان قائدا عسكريا بالمعنى الحرفي للكلمة وبالفطرة لا بالخبرة وهو الذى يعود إليه الفضل في إستخدام تقسيم الكتائب والكراديس ووضع الخطط التكتيكية.

بينما الروم والفرس جيوشهما جيوشا نظامية تمتلك القيادة العسكرية المؤهلة والمدربة.

* لم يعرف العرب شيئا من سلاح الحرب إلا الخيول والإبل والسيوف والرماح والنبال.

بينما الروم والفرس كانت لديهم الحصون العسكرية وآلات الحصار والمجانيق والخنادق[1] وفى استخدام العربات وكتائب الجند المدرعة بالحديد واستخدام الأفيال المدربة على اقتحام الحرب فضلا على الأساطيل البحرية وغيرها من الأسلحة الإستراتيجية التى لم يكن العرب على دراية بها ولم يواجهوا شيئا منها من قبل..

وهذه الأسلحة وحدها مجرد وجودها فى معركة بين جيش يستخدمها وجيش لم يرها أو يتدرب عليها معناه الهزيمة المؤكدة للطرف الثانى بغير جدال

ورغم هذا..

(١) استخدم المسلمون خطة الخنادق مرة واحدة فى حرب الخندق وكانت الفكرة من سلمان الفارسي الذى نقلها للنبي ﷺ ولم يكن العرب يعرفون شيئا عنها وفوجئت قريش بها وكانت أحد أسباب هزيمتها

وفور انتهاء معركة «اليمامة» بدأت قصة حرب فارس والروم..

والقصة من بدايتها تحمل الإعجاز! فقد جاء المقاتل الشيبانى الفذ «المثنى بن حارثة» صاحب التاريخ الطويل من العداء المتجذر للفرس منذ الجاهلية أتى إلى الخليفة أبي بكر الصديق ليطلب منه الإذن فى أن يتأمر على قومه ويرأس الكتائب التى كونها من قبيلته لمهاجمة خطوط وأراضي الإمبراطورية الفارسية على مشارف العراق.

واستشار أبو بكر أصحابه وأقروا طلب المثنى لكونه لم يطلب جديدا لأنه بالفعل كبير قومه وابن سيدهم وله شعبية وارفة بين أبناء قبيلته..

والمدهش حقا هنا..

أن المثنى لم يأت طلبا للولاية على قومه بالإمارة باسم الخليفة بل طلب إمارة الجند الذين جمعهم متطوعين بغرض حرب الإمبراطورية الفارسية!

وإزاء هذا الطلب المذهل الذى يجعل من مهاجمة الفرس أمرًا بسيطًا كأنه رحلة صيد جاء رد فعل الخليفة وأصحابه أكثر إثارة للدهشة..

حيث أقروه على هذا وأشاروا على أبي بكر بأن الوقت قد حان للبدء في فتح فارس!

كل هذا وخيول جيش خالد لم يجف عرقها من معركة اليمامة!

ثم يستمر مسلسل الدهشة عندما يقرر الخليفة أن يبعث بخالد بن الوليد إلى حرب الفرس من جبهة أخرى ليعاون المثنى على إنجاز مهمة تحرير العراق كبداية لفتح فارس..

وليت الأمر اقتصر على هذا بل كان المدهش وجود تفصيلة صغيرة فى أمر الخليفة.

وهى أن الخليفة أرسل إلى خالد - وكان لا يزال باليمامة - أن ينتدب ويشجع الجيش الذى معه للخروج إلى العراق ولكن مع شرط هام.

وهو أن يجعل طلبه بصيغة الطلب لا الأمر وأمره الخليفة أن يذهب لقتال الفرس بمن رغب من جند جيش اليمامه أما من رغب بالعودة للإستراحة من عناء القتال فلا يمنعه.

وبالفعل رجع معظم جيش خالد إلى المدينة المنورة بسبب إجهادهم العنيف وتبقي معه ألفيّ فارس فقط..

فأرسل خالد للخليفة يطلب منه المدد فكلفه الخليفة بأن يجمع المتطوعة من اليمامة والقبائل المتاخمة له وبالفعل نفذ خالد الأمر وتجمع تحت يده بعد التحرك حوالى ١٨ ألف مقاتل !

شيئ مذهل في الحقيقة !

فالخليفة يرسل إلى خالد وجيشه المتمركز بقوته في اليمامه أمرا صارما أن يعيد جنده الراغبين فى العودة ولا يصطحب معه إلا من رغب بمواصلة الجهاد !

ثم يطلب خالد المدد فيأمره الخليفة بجمع المتطوعين للقتال !

أى أن خالد بن الوليد سار إلى حرب الفرس بجيش يبلغ تعداده ١٨ ألف مقاتل وهم لا يتجاوزن بهذا العدد تعداد كتيبة فى جيش الفرس.

وليت الأمر اقتصر على هذا بل الغالبية العظمى من جيشه من المتطوعين أى -بلغة العصر- من جند الإحتياط لا الجند النظامية[1].

وتحرك جيش خالد صوب حدود العراق ليبدأ سلسلة من حلقات الكوميديا السوداء حَلّت على إمبراطورية فارس..

(١) الجيش النظامى هو عدد المقاتلين من الجنود المجندة للخدمة العسكرية أو الجنود النظامية والضباط المحترفون أما قوات الإحتياط فهى الرصيد الإستراتيجي القابل للتجنيد من المدنيين مع المجندين الذين سبق لهم التجنيد سابقًا ولا زالوا في فترة الطلب وبالطبع فالفارق ضخم بين الجندى النظامى وجندى الإحتياط من حيث الجاهزية للحرب فالجندي النظامى مجند فى الخدمة بالفعل وتدريبه قائم أما جندى الإحتياط فهو جندى تم تسريحه وفقد جاهزية القتال ويحتاج لإعادة التدريب أو جندى لم يتم تجنيده أصلًا من قبل.

فقد واجههم فى ست معارك تقريبًا كان يخرج من حرب أخرى ويواجه في كل حرب جيشًا مختلفًا بقائد مختلف فقد سحق الجيش الفارسي في معركة (نهر الدم) وفى نفس العام انتصر على الجيش الفارسي التالى فى معركة «ذات السلاسل» ثم معركة «الولجة» وكل هذا فى إيقاع سريع لا يهدأ !

وهنا يلفت نظرنا أستاذنا الدكتور «مجدى الربعي» أستاذ التاريخ الإسلامى بمصر إلى واقعة لطيفة حدثت عند موقع «عين التمر» فى بادية العراق فقد شاهد خالد بن الوليد إحدى كنائس نصاري العرب وبها نحو أربعين غلاما يتعلمون مبادئ النصرانية[1]..

(١) كان الروم قد انتصروا فى الجاهلية على الفرس وردوا هزيمتهم التى تمكن فيها = =الفرس من احتلال الشام ومصر فقام الروم باحتلال العراق فترة من الزمن انتشرت معها الديانة المسيحية على المذهب الرومى فى العراق وأصبحت المسيحية إحدى الطوائف القليلة الموجودة فى مملكة الفرس مع طوائف أخرى تمثل أقليات بالنسبة للديانة المجوسية دين الدولة الفارسية الرسمى.

وطبقًا لتعاليم الإسلام فقد أمنهم خالد بن الوليد على عبادتهم إن شاءوا البقاء على دينهم .. وأسلم بعضهم

فكان من بين الذين أسلموا ثلاث غلمان وهم (نصير ويسار وسيرين)..

فيشاء الله أن يتزوج الغلمان الثلاثة بعد إسلامهم لينجب كل منهم نجما من نجوم الإسلام فأنجب نصير ابنه موسي بن نصير وهو القائد العسكري الفذ الذى فتح الساحل الإفريقي كله وكان له اليد العليا في فتح الأندلس عندما أرسل إليها طارق بن زياد وأنجب سيرين ابنه محمد بن سيرين وهو أحد أهم التابعين وعلماء الحديث وهو صاحب الباع الطويل والشهرة الكبيرة فى تفسير الأحلام بمنهج القرآن والسنة.

وأنجب يسار ابنه اسحاق بن يسار الذي صار واحدًا من أعلام علماء التابعين فى مجال كتب السير والمغازى وبعد معركة الولجة

قرر خالد أن يستريح بجيشه قليلًا وأظنه فعل ذلك لكى لا يصيب أباطرة فارس بضغط الدم وكافة الأمراض المزمنة !

ثم خاض معركة «أليس» واستخدم فى هذه المعركة نفس ما استخدمه سابقا من إستراتيجية «الكماشة» التى تمكن من محاصرة الجيش الفارسي بها وأوقع بهم الهزيمة أيضا ليضطرب ميزان الفرس في العراق تماما بعد هذه النتائج المذهلة وهو ما أدى فيما بعد إلى سقوط «الحيرة» عاصمة العراق ثم فتح العراق بأكملها بعد ذلك.

والشاهد من تلك المعارك المتواصلة أن خالد لم يهدأ من مواصلة الزحف بنفس الجيش الذى خرج به وواجه الفرس بتكتيك عسكري غير مسبوق فى العقلية العربية من قبل وفتك بأربعة جيوش فارسية شاركها جيش من نصاري العرب وفروا جميعا من أمامه بالإضافة إلى أن خالد بعد هذا العناء تمكن من الزحف بستة آلاف مقاتل استجابة للقائد عياض بن غنم الذى كان يعانى الإجهاد مع

جيشه في حصار «دومة الجندل» وتعاظمت عليه هجمات وحصار قبائل عرب النصاري.

فسار خالد إليه ونجح مع عياض بن غنم فى فتح الحصن عنوة.

ولما علم الفرس وحلفاؤهم من النصاري العرب بمقدمه إلى دومة الجندل فهزمهم خالد فى موقعة «الحصيد»..

ولما فرغ خالد من هذا كله كانت فارس قد أصبحت تحت التهديد لأن العراق سقطت وانفتح الطريق لتهديد «المدائن» ولهذا جمعت الإمبراطورية أعتى جيوشها ووضعتهم جيشا خلف جيش للدفاع عن المدائن.

وتوقف خالد قليلا ثم سار إلى النقطة التى تتلاقي عندها حدود الروم والفرس في موقع «الفراض» فعلم الروم أيضًا بوجود خالد ودارت هناك معركة خالدة ومميزة اجتمعت فيها الروم والفرس معا على قتال خالد بن الوليد فهزمهم هزيمة منكرة.

وكانت معركة الفراض هى آخر معركة يخوضها خالد فى فارس..

ذلك أنه بعد هذه الإنتصارات المذهلة جاء قرار الخليفة إلى خالد أن يقتسم جيش العراق بينه وبين المثنى بن حارثة ليسير خالد من العراق إلى الشام كى يكون قائدا عاما لجيوش المسلمين التى اجتمعت لقتال الروم وجحافلهم القادمة عند اليرموك!

وهنا أيضا لابد لنا من وقفة!

فلا شك بعد هذه التفاصيل سنجد أن علوم العسكرية والعلوم السياسية لو أصبحت كائنا متكلما لأصابها الخرس الهستيري من أسلوب تعامل دولة الخلافة مع حرب الروم والفرس.

فالخليفة الصديق رضي الله عنه بعد أن انطلاق جيوشه للدفاع عن الدولة ذاتها فى حروب الردة لم يمنح نفسه الفرصة للإستراحة ليصدر القرار بغزو إمبراطورية فارس.

وينجح المسلمون بالفعل في فتح العراق كاملة فى متوالية حربية ليس لها نظير على الإطلاق..

إلى هنا سنجد أنفسنا أمام انقلاب تام لكل مفاهيم العقل والمنطق..

فما بالنا إذا علمنا أن قرار الخليفة بحرب فارس تزامن معه -فى نفس الوقت تقريبًا- قرار آخر لقوات أخرى بقواد آخرين وجهها الخليفة لضرب حدود الروم فى الشام.

وكان على رأس هذه الجيوش نجوم بارزة من الصحابة مثل وأبو عبيدة بن الجراح عمرو بن العاص ويزيد ومعاوية بن أبي سفيان وعكرمة بن هشام وشرحبيل بن حسنة.

وكان تحت يد هؤلاء القادة جيوش لا يتعدى أكبرها ستة آلاف مقاتل أ ونجحوا فعلا فى هزيمة الروم بأكثر من موضع وفتحوا مناطق واسعة من الشام مثل بصري وبعلبك وحمص وفلسطين.

وعندما أدركت الروم مدى خطورة الوضع جمعوا جيوشهم فى الشام بأكملها لتكوين واحد من أكبر الجيوش عتادا وعدة فى التاريخ حيث بلغ مائتى ألف مقاتل بخلاف المجندين من عرب الشام الذين أمدوا الروم بأعداد غفيرة وكل هذا تحت قيادة أبرع قواد الروم «ماهان».

بالإضافة إلى حشد هائل من الحصون والدروع وأدوات الحرب غير التقليدية.

ولنتوقف هنا لحظة لنسأل..

كيف اتخذ الخليفة قرار فتح جبهات القتال المتعددة ضد الروم في نفس الوقت الذى يخوض فيه خالد بن الوليد والمثنى وعياض بن غنم حربهم ضد إمبراطورية فارس !

ما هى طبيعة هذا اليقين الذى لا يتزعزع والذى يجعل الخليفة يتخذ قرارا بهذا الشكل ويوجه جيوشه وقادته الآخرين لحرب الروم

ولا يوجهها لمدد المسلمين الذين يخوضون حروبا متوالية ضد جيوش الفرس التى تنافس الجراد فى العدد والإنتشار ؟!

ولماذا لم يطبق الخليفة المنطق العسكري العام الذى يقتضي بالإنفراد بعدو واحد ومهادنة الآخر لتفادى توزيع الجهد وتفادى اجتماع الأعداء على الدولة لكنها كما نردد مثبت دائما..

المعادلة القرآنية ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[محمد: ٧].

بالإضافة للسبب الأهم..

وهو أن الخليفة والصحابة كانت لديهم نصوص الوحى القاطعة التى سمعوها من النبي ﷺ والتى تبشرهم هم بالذات أنهم سيكونون جيل الدولة الأول الذى سيحضر فتح فارس والروم.

لهذا ما كان الصحابة ولا الجند يلقون بالا لخطورة هذه القرارات وكأنها بالفعل أمر طبيعى لا غبار عليه..

وفور انتهاء خالد من معركة «الفراض» وهو الذى لم يسترح منذ معركة «اليمامة» جاءه أمر الخليفة باقتسام الجيش كما قلنا مع

المثنى والنهوض من فوره إلى الشام حيث تجتمع جيوش الخلافة فى انتظاره ليقود المعركة الفاصلة فى اليرموك.

ولم يناقش خالد القرار بل نفذه متحمسا ليصل بمنتهى السرعة وبمنتهى المشقة أيضا إلى الشام قبل بدء القتال..

وجمع خالد القوات المتوفرة من كافة الجند ليبلغوا فى أقصي تقدير قرابة ٤٦ ألف مقاتل..

وقد أجمع المؤرخون عربا وغير عرب على أن خالد بن الوليد - العربي الذى لم يغادر الجزيرة من قبل - تمكن بفطرته من وضع أسس تنظيم العسكرية الإسلامية - كمدرسة عسكرية مستقلة - من حيث تقسيم الجيوش للتقسيم الرئيسي وهو «القلب والميمنة والميسرة» فضلًا على التقسيم الجزئي إلى كتائب وكراديس وخيالة ومشاة ورماة بالإضافة إلى ابتكاره فرق التدخل السريع أو قوات الصاعقة التى كان يختار لها أشجع الفرسان وكان منهم «البراء بن مالك» فارس معركة اليمامة الشهير.

وأيضًا في اليرموك كان فى الصاعقة قائدهم ونجمهم اللامع الصحابي الجليل «الزبير بن العوام» ومعه عكرمة بن هشام ومجموعة من خيرة الصحابة الذين أذهلوا الروم فى اليرموك وفتح مصر.

ويمكن للقارئ الكريم أن يعود لتفاصيل هذه المعركة الخالدة «اليرموك» ليري كيف أن جيش الخلافة - وهو ربع عدد جيش العدو - تمكن من سحق جيش الروم تقريبا بانتصار جارف هز أركان إمبراطورية الروم وفارس معًا[1].

حيث كانت فارس وقتها تلتقط أنفاسها بعد رحيل خالد عن العراق وتستعد للقيام بهجوم مضاد كاسح تستعيد به ما فقدته منتهزة فرصة انشغال المسلمين فى الشام..

فجاءهم خبر انتصار جيش الخلافة فى اليرموك كالصاعقة ليحشدوا قواهم بالفعل وينفذوا الهجوم المضاد الذى استعاد به

(١) يمكن الرجوع للبداية والنهاية للعلامة ابن كثير وكذلك موسوعة التاريخ الإسلامى للعلامة محمود شاكر.

الفرس شطرًا كبيرًا من العراق وثبتوا في أماكنهم كى يلعبوا لعبة التحصينات المتوالية لحماية المدائن وأرض فارس.

وقبل أن تمضي ثلاثة أشهر فقط على الإنتصار الساحق في اليرموك ثم نجاح المسلمين بقيادة أبي عبيدة فى فتح الشام كلها وبيت المقدس.

قبل هذه الفترة جاءت لعمر بن الخطاب - عقب وفاة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنباء الهجوم الفارسي المضاد ليقوم بدعوة الناس للخروج إلى العراق تحت قيادة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

فإذا به يقول للصحابة فى بساطة:

لابد من إتمام فتح فارس والقضاء على دولة الفرس تماما لتأمين حدود الدولة !

وبدأ سعد بن أبي وقاص -وكان يومها مريضًا متوعكًا- بالإستعداد لصد الفرس واستعادة العراق ومواصلة الزحف.

ووقعت بالفعل موقعة «القادسية» التى لا تقل جسارة وأهمية عن موقعة«اليرموك» وجاءت بعدها -كما قلنا- بثلاثة أشهر فحسب.

وتكررت نفس المعجزة بانتصار المسلمين الساحق رغم استخدام الفرس لجيوش الفيلة المدربة التى كانت تمثل رعبا رهيبا لخيول فرسان المسلمين وتفزعها فتصدى للفيلة مجموعة من فرسان الصاعقة ليقتلوها واحدا بعد الآخر وكأنهم يفعلون هذا طيلة عمرهم!

لينهزم أحد أكبر الجيشين فى فارس والذى كان تعداده وعدته كالعادة تفوق تعداد المسلمين بأربعة أمثال تقريبًا.

ولم يهدأ سعد بن أبي وقاص بعدها فدخل في عدة معارك متوالية ويدعمه المدد المتصل من المدينة ليقوم بعدها بخوض ثانى أكبر المعارك فى فارس والتى واجه فيها الجيش الرئيسي للفرس فى موقعة «نهاوند» التى كتبت شهادة وفاة الإمبراطورية الفارسية لتصبح بعدها أثرًا بعد عين.

وفى نفس الوقت..

وبالتزامن مع سقوط إمبراطورية الفرس سقط آخر معاقل الروم فى الشام واتجه بعدها عمرو بن العاص بجيش تعداده خمسة آلاف مقاتل ليفتح مصر وينهى الوجود الرومانى فيها[1].

فكيف يمكن استيعاب هذه الوقائع والأحداث فى إطار المنطق والعلم التجريبي ؟!

وأين هى الدلائل التاريخية التى يمكن أن نجد فيها تشابها - ولو بمقدار بسيط - بينها وبين تجربة دولة الخلافة..

إن المتأمل فى تاريخ ومراجع العسكرية سيجد كتابا ومرجعا معروفا جدا في فنون الحرب وهو كتاب فن الحرب الذى ألفه القائد الصينى «صن تزو» فى عصر الصين القديم.. وهو مرجع عسكري كتبه

(١) قام الرومان بهجوم مضاد بعد ذلك فى عهد عثمان بن عفان واحتلوا الإسكندرية فعاد لهم عمرو بن العاص مرة أخرى ليهزمهم هزيمة ساحقة وتنتهى الحقبة الرومانية فى مصر للأبد.

صن تزو فى القرن السادس الميلادى من ١٣ فصلًا وتمت ترجمته إلى ٢٩ دولة وصار أساسا لتكوين تكتيك القتال لمعظم دول العالم.

وصن تزو هو قائد أسطورى يعتبر هو الأب الشرعي للتكتيك الحربي والتخطيط[١] هذا الرجل اكتسب سمعته الأسطورية لثلاثة أسباب..

الأول: أنه كان صاحب عبقرية لافتة فى السياسة العسكرية والتكيك الحربي وكتابه خير دليل على ذلك.

الثاني: هو نجاحه – باستخدام عقليته – فى الإنتصار على جيش عدوه رغم فارق العدد والعدة حيث انتصر صن تزو على عدوه الذي يبلغ جيشه خمسة أمثال قوته العسكرية..

الثالث: أن سر نجاحه يعود لكونه قائدًا عسكريًا شديد الصرامة إلى حد الوحشية ولهذا كان جنوده يرهبونه رهبتهم من الموت ويطيعون أوامره ويستبسلون لتنفيذها.

(١) دراسة عن صن تزو بعنوان «فن الحرب، ج ١»، رياض الصداوى، موقع الحرة.

أى أن سمعة صن تزو العسكرية الرهيبة جاءت من معركة وحيدة تمكن فيها من هزيمة عدو يفوقه بخمسة أضعاف ولم يكرر هذه المعجزة أو تصبح عادة لديه..

فيا ترى كيف يمكن أن نصف أو نستوعب إنتصارات جيوش المسلمين على مدار عشرات السنين منذ موقعة بدر وحتى عهد عثمان بن عفان «فاتح افريقية» بنفس المعادلة.

فلم يخض المسلمون فى هذا التاريخ حربًا قط إلا وكان عدوهم يتفوق عليهم فى العدد والعدة بنسبة تتراوح بين (ثلاثة إلى واحد) و(عشرة إلى واحد) هذا بالطبع مع الوضع في الإعتبار فارق الإمكانيات الحربية الهائل..

ليس هذا فحسب..

بل إن المسلمين الذين ما عرفوا البحر ولا شاهدوه - إلا قليلًا منهم - أسسوا ببساطة أول أسطول حربي فى عهد عثمان بن عفان ليواجهوا به الأسطول الرومانى الهائل ونجحوا في هزيمته وتحطيمه

فى أول معركة بحرية لهم وهى موقعة «ذات الصوارى» أى أنه – بلغة العصر – تمكن جيش من الهواة من مواجهة جيش من المحترفين فحطموه تحطيمًا!

وليس هذا فحسب..

بل إن جيوش المسلمين تمكنت من تحطيم أبجديات ومبادئ العسكرية التى أسسها «صن تزو» نفسه وخالفوها جميعًا ومع هذا انتصروا في كافة معاركهم..

بل خالفوا حتى منطق الخيال الروائي

فالمسلمون أسقطوا فارس والروم رغم أن فارس والروم حاربوا بعضهم البعض في معارك ضارية لمدة ألف عام تقريبا ولم يتمكن أحدهما من الفوز فى معركة فاصلة تنهى وجود الآخر

وتتمثل النقطة الثانية التى صنعت أسطورة «صن تزو» فى أنه الرجل الذي أسس بعبقريته الشخصية مرجعًا جامعًا فى فنون العسكرية وهو كتاب «فن الحرب»..

فأين هذا يا ترى من خالد بن الوليد..

خالد الذى لم ينشأ - كما نشأ صن تزو - فى وسط إمبراطورية هائلة مثل الإمبراطورية الصينية القديمة ولم يتلق مبادئ الحرب النظامية كما تلقاها صن تزو بل ولم ير خالد معركة نظامية في حياته ولا خاض حربا تشبهها..

ورغم هذا..

وبعبقرية الإلهام الإلهى والتسديد يتمكن خالد من تأسيس فن «العسكرية الإسلامية» منفردًا فضلًا على أن ابتكاراته وموهبته تلك تمكنت من الإيقاع بجيوش الفرس والروم وهم يمتلكون أعظم قادة زمانهم من حيث الخبرة والبراعة في التخطيط..

أى أن قائدًا موهوبًا مثل خالد بن الوليد نفذ وخطط وقاد عشرات المعارك ضد أعتى جيوش الأرض ونجح فى كسب معاركه كلها ليصبح القائد الوحيد فى التاريخ الذى لم يُهزم في معركة.

ليس معاركه فحسب..

بل إن خالد بن الوليد هو القائد العسكري الوحيد الذى نجحت كافة خططه وتكتيكاته العسكرية جميعًا فلم تفشل له أى خدعة ولا أى تخطيط اتبعه.

بل لم يُـهزم حتى فى مبارزة شخصية خاضها في بداية أى قتال رغم أن بعض تلك المعارك واجه فيها منفردا ثلاثة أو أربعة مقاتلين خلافا للعرف العسكري المعروف «فارس ضد فارس».

وتتمثل نقطة التفوق الثالثة لصن تزو في صرامته العسكرية الشديدة التى جعلت له سيطرة كاسحة على جنوده بحيث يطيعونه طاعة عمياء ويبذلون أرواحهم فى سبيل تنفيذها.

فأين هذا من طبيعة وفن القيادة عند قادة المسلمين ؟!

بداية من القادة السياسيين مثل أبي بكر وعمر ونهاية بقادة الجيوش والكتائب..

فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان هو القائد السياسي الذى أمر قائده خالد بأن يعيد الجنود الراغبين فى العودة بعد معركة اليمامة ولا يجبرهم بالأمر العسكري على الزحف معه رغم خطورة المعارك التى كلفه بها.

ومع ذلك فلم يكن الخليفة يسمح بأن يخرج المقاتل للجهاد فى سبيل الله وهو متعب وراغب في العودة للإستراحة من العناء..

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان هو الخليفة الذى أصدر قراره لقادة جيوشه بأن يمنحوا الجند إجازة للعودة من التجنيد كل ثلاثة أشهر بحد أقصي وذلك حتى لا يطول غيابهم عن زوجاتهم ويشتاقون لأهلهم وكلاهما..

أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا تلميذان نجيبان فى فن القيادة لقائدهما محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذى وقف لتنظيم جنوده فى معركة خطيرة مثل معركة أحد..

وكان مع النبي عليه السلام عصا رقيقة يسوى بها الصفوف فأشار للصحابي الجليل سواد رضي الله عنه كى ينتظم في الصف أفلم ينتبه سواد لأمر النبي عليه السلام..

فلكزه بالعصا لكزة خفيفة في بطنه كى ينبهه لأمره فإذا بسواد رضي الله عنه يقول: يا رسول الله.. قد أوجعتنى

فإذا بالنبي عليه السلام بدلًا من أن يقوم بزجره قام بإعطاء العصا لسواد وطلب منه أن يأخذ حقه فيضربه بذات العصا !!!

وليت الأمر اقتصر على هذا !

بل إن سواد قال للنبي عليه السلام أن ضربته كانت على بطنه وهى مكشوفة بينما بطن النبي عليه السلام يغطيها الرداء !

فإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يحسر رداءه ويكشف بطنه كما طلب منه سواد..

فبكى سواد رضي الله عنه وعانق النبي عليه السلام تقديرا وحبا منه لهذا القائد العسكري الملهم الذى ليس له نظير لا في القيادة ولا النبوة..

فهذه هى طبيعة فن القيادة فى مدرسة الوحى حيث لا فارق بين قائد أو جندى لا فى الحقوق ولا في الواجبات..

وهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تجعل المقاتل يبذل حياته بمنتهى البساطة فى سبيل إشارة واحدة من قائده فى الحرب؛ لأن طاعته هنا طاعة مشبعة بالإنتماء لا بالخوف والرهبة..

فأين مدرسة صن تزو ومدرسة الروم والفرس من مدرسة الوحى التى كانت تؤسس رجالًا لا عبيدًا وتُجَند قادة لا مجرد ميليشات تابعة اضطر معها الروم والفرس لتقييد أرجلهم حتى لا يفروا أمام فرسان المسلمين ولم ينفعهم هذا أيضًا.

وأين مدرسة تزو والروم والفرس من طريقة تطبيق المسلمين للنظرية القرآنية التى تحمل سر نجاحهم هذا التطبيق الذى جعل عمر بن الخطاب يتخذ قرارًا يمثل إنقلابًا عسكريًا لا يجرؤ عليه قائد دولة وهو عزل أخطر وأهم قادته من القيادة وقبول التضحية بغياب جهوده عن ساحة المعارك المحتدمة بعد اليرموك.

فعلها عمر الذى أصدر قراره بعزل خالد بن الوليد أبرع قواد المسلمين على الإطلاق فى قرار غير مسبوق ولا ملحوق فى السياسة العسكرية زمن الحرب.

وذلك كله..

لأنه لمح فقط فى أعين الناس أن إعجابهم بخالد بن الوليد قد يؤثر على إيمانهم التام بالنظرية القرآنية لهذا خشي عمر أن يظن الناس أنهم انتصروا بخالد لا برب خالد.

فعزله ولم يبال فى سبيل الدفاع عن صحة العقيدة وثباتها ولم تتأثر القيادة العسكرية فى عهد عمر بغياب خالد لأن كافة الجند والقادة كان يحملون فى قلوبهم صك النصر وهو الإيمان التام بالنصر من الله دون أدنى تقليل من قدر معجزة الإسلام خالد بن الوليد.

والملحوظة الأخيرة فى هذا الملف..

أن النظرية القرآنية تثبت وجودها على مر الزمان ولم تكن خاصة فقط بالعهود الخيرة الأولى وهذا ما رأيناه فى تجربتين

عظيمتين طبقا النظرية بحذافيرها فانتهت التجربة لإمبراطورية عملاقة تأسست على نفس المبادئ..

وعندما حدث الإنهيار جاءهم لنفس السبب الذى قررته النظرية القرآنية وهو التخلى الطوعى عن ثوابت القرآن والسنة والذى جعله الله سببا وحيدا لتلاشي عظمة الإمبراطوريات..

ونعنى بهما

تجربة دولة «المرابطين» التى رعاها وأسسها داعية فذ وهو الشيخ عبد الله بن ياسين الذى استجاب لدعوة القبائل المغربية فى تعليمهم أصول الدين والسنة بعد انتشار البدع والخرافات بينهم وعندما حدث الإختلاف..

اعتزل عبد الله بن ياسين مع زعيم القبيلة يحيي بن عمر اللمتونى وابن عمه يوسف بن تاشفين فى جزيرة بعيدة فى أغوار افريقيا وبدأت دعوتهم إلى منهج السنة بعشرة أشخاص لا يزيدون..

واللافت للنظر هنا أن عبد الله بن ياسين كان يطبق النظرية القرآنية بحذافيرها لهذا بشر أتباعه القلائل بأن الله سيمكن لهم دولة عظمى إذا استمرت دعوتهم على القرآن والسنة وإخلاص النية ونبذ الشرك والبدع.

وتحققت نبوءته بالفعل بعد أن قاد الدعوة أعواما طويلة وتولى معه الحكم يحيي بن عمر ويوسف بن تاشفين لتنشأ دولة «المرابطين» العظيمة التى أدركت الخطر المحدق بملوك الطوائف في الأندلس وتمكنت من ردع الصليبيين عن انهاء الوجود الإسلامى فيها لعدة قرون.

والتجربة الثانية هى تجربة نشأة الدولة العثمانية التى تأسست على يد قبيلة آل عثمان الذين فروا بدينهم من تخوم الصين حتى وصلوا لحدود دولة السلاجقة..

أي أنهم كانوا قبيلة مشردة ومطاردة ويشاء الله أن يصلوا لتخوم دولة السلاجقة فى الشام ليشاهدوا معركة هائلة قائمة بين السلاجقة

المسلمين وبين الصليبيين وبدون تردد التحم مقاتلوا القبيلة مع جيش المسلمين ضد الصليبيين ليكتب لهم النصر المؤزر.

وعقب المعركة أقطعهم أمير السلاجقة تلك الأرض المتاخمة لحدود الروم لتنشأ أول بذرة لإمبراطورية العثمانيين التى أنهت خطر الحملات الصليبية على الشرق إلى الأبد وهى الدولة التى غزت نصف أوربا وأنهت وجود الإمبراطورية الرومانية بعد إسقاط عاصمتهم.

ولم تسقط الدولة العثمانية إلا فى آخر مائتي عام لها بمجرد أن تخلوا طواعية عن ثوابت القرآن والسنة التى تأسست عليهما الدولة لتصبح أيضا نموذجا شاهدا على صحة النظرية القرآنية فى الحكم والتمكين.

فهل هناك مجال بعد هذا كله للمناقشة أو التشكيك فى حقيقة وجود «النظرية القرآنية» وثباتها المطلق في كافة التجارب ؟!

وهل هناك مجال بعد هذا كله للتشكيك بوجود العامل الإلهى كسبب منفرد ووحيد لهذا التفوق السياسي والعسكري الكاسح ضد أعظم إمبراطوريات العالم القديم ؟!

المؤلف

د. محمد جاد الزغبي

شاعر ومفكر مصري

الإقامة: مصر – القاهرة

الإيميل:

هاتف: ٠١٢٧٤٧١٥٤٢١

- دبلوم تخصص فى الشريعة الإسلامية من قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة عين شمس.
- ماجستير الشريعة والقانون الخاص من كلية الحقوق – جامعة عين شمس.
- له برنامج أسبوعي منتظم بقناة «صفا» الفضائية يهتم بالقضايا الدينية والتاريخية.
- له لقاء شهري منتظم بقناة «أحوازنا» الفضائية التى تهتم بمعالجة النشاط الإيرانى الموجه ضد الدول العربية.

- كاتب صحفي مستقل فى قسم الإسلام السياسي بجريدة «الجمهورية».
- له مقال شهرى منتظم بجريدة «السفير العربي».
- مستشار تدريب صحفي بالمنظمة العربية للتدريب(TOHARD).
- مدير موقع وشبكة العز الثقافية السعودية ورئيس تحرير مجلة (العز) التابعة للشبكة خلال الفترة من ٢٠٠٧ حتى ٢٠١١.
- مستشار صحفي لمجلس إدارة شبكة منابر ثقافية.
- تم إنشاء صفحة خاصة بكتبه فى مجال الدراسات الإسلامية في المكتبة الرقمية التابعة لجامعة (المدينة العالمية) بماليزيا.
- أورد الناقد الأدبي الكبير الدكتور عبد السلام البسيونى سيرته الذاتية بفصل خاص من كتابه «شعراء البردة النبوية عبر التاريخ» واختار قصيدته المطولة (فى معارضة البردة) وتم نشرها بالكتاب مع سيرة ذاتية مختصرة له.

الكتب المطبوعة:

(١) ديوان شعر مطبوع بعنوان «التراتيل الأولى» صدر عن دار إشراقة للطبع والنشر عام ٢٠٠٠م.

بتقديم ودراسة الشاعر والناقد شوقي أبو ناجى وتمت مناقشته ضمن فعاليات دار الأدباء بالقاهرة برعاية الشاعر الإسلامى محمد التهامى.. وكتب عنه عدد من النقاد الكبار بمصر مثل الأستاذ الدكتور بدراوى زهران رحمه الله والشاعر مؤمن الهباء والناقد حزين عمر والدكتور فتحى عبد الفتاح والشاعر الوردانى ناصف والشاعر شوقي أبو ناجى رحمه الله.

(٢) حدائق الإيمان فى حرب رمضان

كتاب عن حرب أكتوبر بتحليل وتوثيق ونظرة جديدة فيه رد على كافة الإتهامات التى تم توجيهها للحرب للتقليل من شأنها وقد تم نشر الكتاب كبحث مستقل فى شبكة الدفاع العربي ومواقع الإنترنت قبل أن يتم تجهيزه ككتاب تحت الطبع حاليًا.

والكتاب سيكتب المقدمة له كل من السيد اللواء متقاعد أحمد سعد الدين - أحد أبطال الحرب والسيد اللواء أحمد مأمون والسيد اللواء خليفة إسماعيل خبراء الأمن القومى.

(٣) الفريضة السادسة «مقالات منوعة»

صدر عن دار نوستاليجيا للطبع والنشر - يناير ٢٠٢٠.

(٤) كيف ترد الشبهات بالحوار العقلي وحده - دار يسطرون للنشر والتوزيع.

وصدر الكتاب فى معرض الكتاب - يناير ٢٠١٨/ وهو كتاب حوارى وبحثي مطول للرد على اتهامات وشبهات جماعات الإرهاب بأسلوب الحوار المبسط اعتمادًا على منهج الفلسفة الإسلامية فى رد الشبهات.

والكتاب كتب له المقدمة الدكتور ناجح إبراهيم والكاتب الصحفي بالأهرام هشام النجار.

(٥) **أحقا قد مضت عشرون عاما (ديوان شعر)** - صدر عام ٢٠١٩ عن دار (نوستاليجيا) للنشر والتوزيع.

(٦) **السطر الأخير فى ملف أشرف مروان** - صادر عن دار غراب للنشر والتوزيع ـ صدر في يناير ٢٠١٩وهو كتاب بحثي شامل لقضية البطل المصري الراحل أشرف مروان

(٧) **كتاب صقر سيناء عبد الله الجندى**

(يروى قصة الشهيد البطل النقيب عبد الله الجندى أحد أبرز ضباط الجيش الثانى الميدانى فى سيناء وصاحب أطول مدة خدمة بها منذ تخرجه)

* كتب إلكترونيه صدرت عن وكالة العز للنشر الإلكترونى وتم نشرها فى المواقع والمكتبات الإسلامية.

(٨) **شرح تلبيس إبليس لابن الجوزى- الجزء الأول** (شرح تلبيس إبليس على المعتزلة والشيعة)

(٩) **الخومينى (كبيرهم الذى علمهم السحر)** - قراءة جديدة فى فكر الزعيم الشيعي الخمينى

(١٠) **المناظرة الكبري مع الشيعة الإثناعشرية**

(مناظرة مكتوبة استمرت شهرا كاملا بين الكاتب وأحد باحثي الشيعة فى قضية الإمامة).

(١١) **يالثارات الحسين** (بحوث في العقيدة الشيعية وموقفها من أهل السنة).

(١٢) **السيدة عائشة (نورانية العفاف وقرآنية الإنصاف)**

(١٣) **ستون سؤالا بستين قضية** (كتاب حوارى به ستون سؤالًا بحثيًا مع الإجابة المفصلة عليهم).

(١٤) **سفراء جهنم (الحقيقة وراء المرجعيات الشيعية المعاصرة)** - الجزء الأول.

(١٥) «فن الإشراف وإدارة المنتديات الثقافية»

دراسة من ثلاثة فصول بحثية تعد هى الأولى من نوعها فى هذا المجال خاصة بمعالجة سائر ما يتعلق بتنظيم المنتديات الثقافية على الإنترنت فنيًا وإداريًا تم اتخاذها كأساس للهيكلة الإدارية لعدد من منتديات الشبكة العنكبوتية.

(١٦) تعلم كيف تكون مثقفًا - بحوث ثقافية متنوعة تضمها سلسلة (تعلم كيف... ؟)

وهى سلسلة شهيرة للكاتب على شبكة الإنترنت وتضم ١٢ بحثا يعالج مختلف المشارب الثقافية والفكرية.

- **بحوث منشورة بالإنترنت ويتم إعدادها للنشر**

(١٧) كتاب أولياء بلا مريدين

(يضم الكتاب السيرة الذاتية لأهم شهداء مصر فى الحرب على الإرهاب فى سيناء ويعرض أهم بطولاتهم).

(١٨) «المخابرات المصرية-قصة معجزة على النيل»

دراسة مسلسلة تشرح تاريخ جهاز المخابرات المصري ودوره فى حماية الأمن القومى العربي من مصادر معتمدة وذكر سائر المعلومات الحقيقية الصريحة المتاحة لمن تولوا إدارة الجهاز وأشهر ضباطه وأشهر عملياتهم.

(١٩) سفراء جهنم - الجزء الثانى

(يسلط الضوء على تاريخ جماعة الإخوان وإبتكارهم لجماعات الإرهاب المتطرف وعلاقتهم التاريخية بالشيعة وفرقهم خلال بدايات القرن العشرين وحتى سقوط حكمهم فى مصر).

(٢٠) شرح تلبيس إبليس لابن الجوزى ـ الجزء الثانى.

(٢١) فبُهت الذى كفر

(كتاب يضم مناظرات منوعة للكاتب مع الجانب الشيعي والجانب العلمانى فى قضايا العقيدة).

(٢٢) الإعجاز العلمى والعجز العلمانى

(كتاب للرد على العلمانيين فى إنكارهم لوجود الإعجاز العلمى بالقرآن الكريم).

(٢٣) شخصيات مصرية أسرت النبوغ

(كتاب للأثر الفكرى والوطنى لأشهر الشخصيات المصرية فى العصر الحديث من العلماء والمفكرين والأبطال العسكريين ويضم السير الذاتية عن كل من: محمد حسنين هيكل - عباس محمود العقاد - الدكتور مصطفي محمود - اللواء محمد نسيم - رفعت الجمال - عبد الله النديم (بطل الثورة العرابية) - د. نبيل فاروق-الشيخ محمد متولى الشعراوى - العميد إبراهيم الرفاعي (بطل أكتوبر).

(٢٤) معلومات ثقافية خاطئة... ومنتشرة

(كتاب يطرح أكثر من مائة معلومة تعتبر من المسلمات لدى

العامة وهى خاطئة جملة وتفصيلا مع إيراد كافة الأدلة العلمية على خطئها).

(٢٥) نظرات فى التاريخ السياسي لقضية الأقصي

(كتاب يؤسس لقراءة جديدة فى القضية الفلسطينية سياسيًا وتاريخيًا منذ أواخر عهد الدولة العثمانية وحتى حرب غزة).

(٢٦) قصة قصيدة

(وهو كتاب يشرح عددا من الأحداث التاريخية من خلال شرح بعض القصائد السياسية الشهيرة لكبار الشعراء فى القديم والحديث).

(٢٧) الإلحاد أمام محكمة العقل والتاريخ

(كتاب لمناقشة قضية الإلحاد من خلال إثبات صدق الرسالة الإسلامية عبر أحداث ووقائع التاريخ الإسلامى نفسه).

(٢٨) قرأت لك

(كتاب يضم شرحًا وتعليقًا على أهم الكتب والمراجع فى مجال الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي والمعاصر وأيضًا أبرز كتب الآداب والفكر العربية).

(٢٩) الحضارة الفرعونية المفترى عليها

كتاب به عدد من البحوث العلمية المطولة ومنها بحث عن تاريخ الحضارة الفرعونية من وجهة نظر مغايرة تتناول التاريخ الدينى لدى المصريين القدماء.

(٣٠) الصراع السياسي والثقافي بين مصر وإيران فى الفترة من (١٩٦٠م - ٢٠٠٨).

وهو كتاب يؤرخ لموضوع لم تتطرق إليه البحوث كثيرا ويعالج الصدامات السياسية والثقافية بين مصر والسياسة الإيرانية منذ عهد عبد الناصر وحتى الوقت الحالى (تحت الإعداد)

الفهرس

خطة الكتاب ٥

مقدمة .. العقل المحايد.. والعقل المنحاز ١٣

الفصل الأول: متى بدأت فكرة الإلحاد وهل الشك كان طريقا للإلحاد أم العكس ٢٧

* متى بدأت فكرة الإلحاد ؟!.....٣٩

* إعادة إحياء الإلحاد فى العصر الحديث ٥٥

الفصل الثانى: إثبات صحة الرسالة بالمنطق العقلي من السيرة النبوية ٧١

أولاً: إعلان النبي.....٧٥

ثانيًا: موقف النبي عليه السلام من عمه وأصحابه ٨١

ثالثًا: معاتبة الله عز وجل للنبي عليه السلام فى القرآن ١٠٩

رابعًا: موقف النبي عليه السلام في حادثة الإفك.....١١٥

خامسًا: موقف النبي.....١٢٣

سادسًا: مراسلة النبي ﷺ لملوك الأرض في زمانه ١٣٩
الفصل الثالث: إثبات صحة الرسالة من خلال التاريخ الإسلامى ١٦٧
أولاً: قرار خروج جيش أسامة بن زيد..... ١٨٢
ثانيًا: حروب الردة والهجوم على المدينة ١٩٦
ثالثًا: معارك فتوحات فارس والروم وعجائبها !..... ٢١٣
المؤلف ٢٥٢